الأعمال الإبداعية

مكتبة الأسرة ٢٠٠٠

مهرجان القراءة للجميع 2000 عشر سنوات



محمد سلماوى

رسائل العودة

وقصص أخرى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رسـائل العـودة

وقصص أخرى

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: بورتريه

التقنية: أقلام ملونة على ورق ملون

المقاس :٥١×٤٠ سم   مقتنيات مجموعة فيينا

إيجون شيللى (١٨٩٠ - ١٩١٨)

مصور نمساوى جرئ، تخصص فى رسم صورة الجسد البشرى بخرية منقطعة النظير، وهو يختزل الخطوط فى غير ماخلل، وتفيض ألوانه المرجة الناعمة على سطح اللوحة لتعطى المشاهد الإحساس بالبهجة والتفاؤل،.. وفى استخدامه للورق الملون يلجأ إلى استخدام المساحات البيج الميالة إلى الحمرة؛ على عكس صديقه الحميم جوستاف كليمنت الذى يعتمد على تجاور الألوان فى مساحات صغيرة تشبه الزخرفة. أما شيللى فهو يستخدم الدرجات المختلفة للون الواحد مع الاستعانة بأقل عدد من الألوان. أما فنه فهو امتداد للانطباعية، كما إنه يمزج بين الألوان منْ خلال خطوط رفيعة وأخرى سميكة متوازية أو متقطعة .

محمود الهندى

رسائل العودة

وقصص أخرى

محمد سلماوى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

رسائل العودة وقصص أخرى
محمد سلماوى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :
د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشـــباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

رسائل العودة

عودى إلى..

عودى إلى، شعرك مازال على وسادتى.. ورائحة عطرك تملأ غرفتى.. وربطة العنق التى أهديتها لى مازالت حول رقبتى.

جئت كالطيف الأثيرى فدخلت حياتى دون أن تقرعى بابا، ومكثت معى شهرا قمريا واحدا فقط.. أربعة أسابيع.. ثمانية وعشرين يوما.. ثم ذاب الطيف فى زوبعة الريح وكأنه لم يأت قط.

كيف حدث ذلك؟ كيف تركتنى هكذا ومضيت؟ قولى لى كيف؟ ألا أستحق منك تفسيرا.. أكاد أقول اعتذارا..؟!

يقولون إن من قواعد الأدب أن يطرق المرء الباب قبل أن يفتحه.. أن يستأذن قبل الدخول.. لكن ذلك ليس صحيحا ، فالأدب كل الأدب أن يستأذن المرء قبل أن ينصرف ، وها أنت قد انصرفت بلا استئذان ولاحتى وداع..

أكاد أجن.. لا أستطيع النوم.. لا أستطيع الصحيان.. كيف أنام وأنا لا أكف عن طرح السؤال: لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ وكيف أصحو وأنا مابرحت كالمسطول الذى لم يفق بعد من الصدمة؟

كيف وصلنا إلى حيث نحن الآن؟ بل إلى حيث أنا الآن فأنت لم يعد لك مكان.. لست أعرف إلى أين مضيت ولا فى أى أرض أو سماء حللت..

كيف انتهى الحلم؟ لا أعرف.. أعرف فقط كيف بدأ.

بعد ظهر ذلك اليوم الشتوى ذى الشمس الهادئة دخلت أحد المحلات.. لم أكن أعرف ماذا ينتظرنى بالداخل.. ولا ما الذى ساق قدميك إلى ذلك المحل الذى لا يبيع إلا ملابس الرجال؟.. لماذا لم أسألك بعد ذلك هذا السؤال، وأسئلة أخرى كثيرة تتدافع الآن إلى رأسى كالموج الذى يصفع الشاطئ بلا انقطاع؟.. لم يكن هناك وقت.. لو أنه كان مقدرا لنا أكثر من مجرد شهر واحد.. أكثر من أربعة أسابيع.. أكثر من ثمانية وعشرين يوما بالتحديد، لربما وجدنا الوقت ليسأل كل منا الآخر أسئلة كثيرة.. لكنه ذلك السيف الذى لم نلحظه والذى قطع فجأة كل ما كان بيننا.. لو كان لدينا مزيد من الوقت لسألنا أنفسنا الكثير من الأسئلة التى ستظل الآن بلا أجوبة.

لم أشتر شيئا من ذلك المحل ، لست أذكر الآن لماذا؟ هل قال لى البائع إنه ليس لديهم ما طلبته؟ أم أنه لم يعر طلبى اهتماما؟ أم أنه

أجابنى لكنى لم أع رده؟ لست أعرف.. كل ما أعرفه هو أننى خرجت من المحل بك أنت.. خرجنا سويا ليدخل كل منا حياة الآخر وكأن هذا هو الشئ الطبيعى الذى كان يجب أن يحدث بعد ظهر ذلك اليوم الشتوى ذى الشمس الهادئة.

طوال شهر قمرى كامل لم يفارق أحد منا الآخر.. أما زال فى الدنيا ذلك الحب الذى يحدث من أول نظرة؟ لقد عدت يومها إلى منزلى وأنا أعرف أننى وقعت فى حبك فى نفس اللحظة التى رأيتك فيها.

.. نعم وقعت، ووقعنا، ووقعت بنا الأرض، ووقع العالم كله من حولنا.. هكذا بلا مقدمات.. العقل ضاع والتفكير توقف ولم نسمع قلبينا يدقان بقوة معا كأنهما قد أصبحا قلبا واحدا خشينا أن يسمع دقاته المارة فى الطريق.

أذكر ذلك القول الذى قلته لى ذات مرة.. أهو لكاتب فرنسى: تنهيده الحب الأولى هى تنهيدة العقل الأخيرة.. لقد وجدت لك مقولة أخرى من تلك المقولات التى كنت تحبين جمعها وهى لكاتب إنجليزى هذه المرة تقول بعكس مقولة كاتبك: كم هم حكماء هؤلاء الذين هم حمقى فى الحب! كنا حكماء إذن ولم نكن حمقى.. كنا حكماء لأننا كنا حمقى.

إنى لم أكن أسعى لهذا الحب ولا لأية علاقة خاصة مع فتاة صغيرة مثلك.. فأنا أقترب بخطى ثابتة من سن الستين وأنت لم

تصلى بعد إلى الثلاثين.. قلت إنك لاتحبين الشباب الصغار.. لا تنجذبين إلا للشعر الفضى ، وأنا شعرى قد شاب فى سن الأربعين..

ثلاثون سنة كانت فارق السن بيننا.. قلت لى: ليحرق كل منا شهادة ميلاده ولنستخرج شهادة جديدة لنا معا فحياتنا بدأت يوم التقينا.. ومزقت شهادتى البالية.. ومحوت تاريخى السابق.. وأعلنت ميلادى الجديد.

من أين جئنا بكل هذا الحب؟ هل الحب هذا مثل بعض الأمراض التى إن أصابت الإنسان فى الصغر فلا خوف، أما إذا جاءته فى الكبر فياويله منها؟ هل الحب مثل الحصبة والجدرى والجديرى واحتقان اللوزتين؟ لابد أنه كذلك فأنا الآن مريض أشد ما يكون المرض..

أمضى يومى الآن أحصى الساعات التى قضيناها معا كمن فى تعبده يعد حبات المسبحة.. مسبحتى التى لا يراها أحد والتى بها ٦٧٢ حبة هى عدد ساعات الثمانية والعشرين يوما التى قضيناها معا.. أمضى يومى أحصى القبلات التى كانت بيننا والتى لاتكفيها حبات المسبحة فقد كانت كالنجوم بلا عدد.

وكلبك الأبيض.. كوكى هذا الذى ابتليتنى به ورحلت.. سأقتله.. سأقذف به من النافذة فلم أعد أطيق نظرة عينيه الحائرتين اللتين لاتكفان عن سؤالى عنك.. لقد أصبح مثلى كالحيوان المحبوس فى

قفص حديدى يمضى نهاره يمشى من الباب إلى الفراش ومن الفراش إلى الباب يبحث عنك.. يذكرنى بما لم أنسه.. بما أحاول أن أسترجعه بكل أحداثه كالذى أفاق لتوه من حلم جميل ويحاول استرجاعه بسرعة حتى لاتضيع منه التفاصيل.

عودى إلى.. لم أعد أستطيع.. سأصرخ باسمك فى الطرقات علك تسمعيننى.. سأنشر إعلانا فى أكبر الصحف أقول لك فيه على صفحة كاملة: عودى إلى! عسى أن تكون لهاتين الكلمتين قوة الأمر العسكرى الذى لايملك المرء إزاءه عصيانا.

عودى إلى فأنا أشعر باليتم.. حين توفى أبواى حزنت عليهما حزنا كبيرا لكنى لم أشعر باليتم الذى أشعر به الآن.

تتذكرين يوم زرنا أهرامات سقارة فى بداية عهدنا؟.. مشينا ساعات فى الصحراء أنا وأنت وتحت أقدامنا الرمال كالوسادة الناعمة ، وفوقنا زرقة السماء الحانية؟ يومها اقتربت يدانا وتلامستا لأول مرة.. ثم تشابكتا رغما عنا بينما أخذت أعيننا تتلفت حولنا خشية أن يرانا أحد.

قلت لى: نسافر خارج البلاد حتى أستطيع أن أمشى فى الشارع ويدى فى يدك دون أن نخشى أحدا.

هل تذكرين حين عدنا بعد أيام إلى نفس المكان؟ هل تذكرين كيف وجدنا العشب الأخضر قد نبت تحت تلك النخلة الوحيدة التى جلسنا فى ظلها؟ نبت فى كل موقع وطأته قدماك فى الصحراء كما

نبت فى صحراء حياتي ونبتت كذلك الأزهار والرياحين..

ثم فجأة طلع علينا ذلك الشاب الدمث ابن المنطقة الذى أراد أن يسمعنا ما كتبه من أشعار.. ليتنا استمعنا إليه حينذاك.. فحين عدت بعد ذلك إلى أبياته البسيطة الصادقة وأنا أنقب فى وحشتي عن كل ما يتعلق بك ، وجدت فى تلك الوريقات التى أعطاها لنا قصة ذلك الحب الذى هب كالإعصار بين فتى وفتاة ولم يهدأ إلى أن رحلت الفتاة.. اختطفها الزمن.

ألم أقل لك إننى أخشى أن ينتهى حبنا؟ قلت لى: لن ينتهى فإن الحب حين يكتمل لايمكن أن ينتهى.. لا يمكن أن يموت.. قلت لك: قد يصيبنا السأم.. قلت لى: إنك لا تعرفنى إذن ، قلت: بل أعرفك.. لكنى أعرف أيضا الزمن.

واليوم ها قد فعل الزمن فعلته وأخذك منى السأم.. والسأم حين بحثت عنه فى المعاجم وجدت أنه الموت، لقد اجتزت يا فتاتى شاطئ الحياة إلى البر الآخر.. لكن يجب أن تعودى.. إذا عدت ستعود تشرق شمس الأندلس.. ستعود الجولان.. ستتحرر فلسطين وتحطم القدس قيودها.. عودى إلى.. وإلا فسأترك هذه الدنيا وآتى إليك حيث أنت!

العود أحمد

صديقي العزيز، بل أخي ورفيق طريقي أحمد..

أكتب إليك هذا الخطاب عسى أن يصلك في خلوتك فيعيدك إلينا مرة أخرى.

كيف حدث ما حدث فجأة هكذا؟ أين عرفت هذه الجماعة التي قلبت حياتك رأسا على عقب؟ أريد إجابة عن هذا السؤال فإن لي عندك حقا.. حق الصداقة التي كانت بيننا منذ كنا طفلين بالمدرسة وحتى سنوات دراستنا الحالية بالجامعة ، ألم نكن الصديقين اللذين لا يفترقان قط؟ ماهي تلك الجماعة الغاشمة التي فرقتنا؟ إنني أذهب كل يوم إلى الجامعة وأجلس في المدرج وأحس بأن الجميع يتهامسون من حولي..

هل تذكر مدحت؟ ذلك الرذيل الذي كان يعاكس صديقتك القديمة مرفت؟ لقد كدت أضربه أول أمس حين سمعته ينطق اسمك لمجموعة من الأرذال الذين يشبهونه فلم أطق ذلك.. تقدمت إليه أمام الجميع وقلت: ماذا تقول عن أحمد؟ قال: كنا نسأل عنه، لماذا لم يعد يحضر المحاضرات؟.. قلت مالك أنت إن حضر أو لم يحضر: قال: أليس من حقنا أن نسأل عن زميل؟.. فقد يكون ألم به مكروه قلت: لا لم يلم به مكروه، إنه مريض.. فضحك الكلب وضحك معه زملاؤه وهو يقول: نعم هو فعلا مريض، وقد سمعنا عن المرض الذي أصابه.

سافل حقير! يريد أن يتشفى ليس إلا! ويجرؤ أن يقول: أليس

من حقنا أن نسأل عن زميل؟ أى حق هذا الذى يتحدث عنه؟ لا بالطبع لا حق له، لكننى أنا لى هذا الحق. فدعنى أسألك يا أحمد: ماذا حدث؟ لقد كنت شابا طبيعيا مثلنا وكانت حياتنا طبيعية تمضى بلا مشاكل ، طبعا كل حياة بها مشاكل ، لكنها المشاكل التى تواجه كل الشباب ، ما أقصده هو أنك لم تواجه صدمات تدفعك فى هذا الاتجاه الذى لا أريد أن أسميه لقد اختلفت أنت ومرفت هذا صحيح ، ولكن تلك لم تكن نهاية العالم فهناك فتيات أخريات فى هذه الدنيا أليس كذلك؟

لا أريد أن أتخيل كيف تكون الآن.. يقولون إنك قد أطلقت لحيتك وأنك لا ترتدى إلا ذلك الجلباب القصير القبيح الذى لا يمت لملبسنا بصلة ، لا لا أريد أن أصدق ولا أريد أن أتصور، وإذا تصورت أى شخص فى هذه الصورة فلن أتصورك أنت.. أنت صديقى بل أخى ورفيق طريقى الذى كان مليئا بالحياة، مقبلا عليها مثلنا جميعا.. لم تكن لك حياة بدونى ولم تكن لدى حياة بدونك.. كنا نذهب للمدرسة سويا.. ودخلنا نفس الكلية لأننا حصلنا على نفس المجموع تقريبا.. طبعاً، فقد كنا نذاكر سويا وما دخل رأسك من الدروس هو مادخل رأسى.. وكنا نمضى وقتنا مع نفس الأصدقاء بالنادى ويوم الجمعة كنا نذهب للصلاة سويا.. حتى حين صادقنا فتاتين كانتا صديقتين حميمتين.. مرفت وليلى، فكيف هذا الفراق وماذا حدث؟

لست أعرف هذه الجماعة ولا أعرف كيف قابلتهم ومتى؟ ثم

ماهى هذه الجماعة وما هى تعاليمها؟ هل تقتضى هذه التعاليم أن تترك بيتك وأهلك هكذا؟ والدك المريض ووالدتك التى صارت تحاصرها عيون الناس فى كل مكان؟ هل تقضى تعاليم هذه الجماعة أن تترك أصدقاءك ؟ أن تعتزل الدنيا كلها؟

إنى أكره هذه الجماعة السوداء، ولو أنى قابلت أحدا منهم لأطبقت بيدى على رقبته كما كنت سأفعل مع مدحت.. نعم سأطبق على رقبته وسأقتله إذا لم يخبرنى ماذا فعلوا بك حتى تنساق وراءهم هكذا.

كنا قد تواعدنا على السفر مع بقية الأصدقاء إلى الإسماعيلية صباح يوم السبت وذهبنا سويا يوم الجمعة لشراء الكاميرا حتى نلتقط صورا للرحلة ، قلت لك إن هذه الرحلة ستنسيك مرفت وتعود منها سليما معافى ، وعاد كل منا إلى بيته على أن نلتقى صباح اليوم الثانى بمحطة الأتوبيس الذى سينقلنا جميعا إلى الإسماعيلية، وذهبت للمحطة مع الجميع لكنك لم تأت.. أردت التخلف للسؤال عنك ، فقد أحسست أنك قد أصابك مكروه، لكن الأصدقاء استبقونى قائلين إنك ربما تأخرت فى المواصلات وإنك لابد ستلحق بنا فأنت تعرف أننا سنمضى يومنا بالنادى الأسماعيلى وماهى إلا ساعة أو تكاد وتكون معنا هناك.

بهذا الأمل ركبت معهم الأتوبيس.. ويعلم الله أننى لم أقم أصلا بهذه الرحلة إلا من أجلك أنت.. لكنك لم تأت وكانت رحلة كئيبة ظلت

تتجاذبني خلالها الحيرة والشكوك: أين أنت وما عساه قد حدث؟ هل وقع لك حادث؟ هل حدث شئ لوالدك ؟ هل مرضت أو أصابك مكروه؟

وكانت ظنوني.. وا أسفاه.. كلها في محلها فقد وقع لك حادث ومرضت وأصابك مكروه.. إنه الحادث المباغت الذي لم يكن أحد يتوقعه وهو المرض الخبيث الذي لا يأتي إلا خلسة وهو المكروه الأكبر الذي يستولي على كيان شاب في مقتبل العمر كان دائما مقبلا على الحياة.. مازلت أسمع رنين ضحكتك الصافية!

أخي وحبيبي شريف.. أرجو أن تكون تلك حالة عارضة وتعود مرة ثانية إلي كل من يحبونك.. الذين لم تعد حياتهم كما كانت حين كنت تملؤها بهجة وسرورا.

.. أحمد بقوة كل ما بيننا من صداقة أقول لك صادقا عد إلى صوابك.. عد يا أحمد فالعود أحمد.

عديا زمن!

ها أنا هنا أعرف أن حياتي صارت ورائي ولا أنتظر الكثير مما بقي لي منها، لكن بي فقط اشتياق إلي ولدي شريف ومصطفى.

أعرف أن لديهما مشاغل كثيرة، فالدنيا لم تعد كما كانت في الماضي.. لقد كنا جميعا نجد الوقت لنزور أمهاتنا ، أما الآن فليس لدى ولدي الوقت لكي يزوراني إلا في الأعياد والمناسبات ، فابني الأكبر شريف طبيب، والطبيب لا يكاد يراه من يعيش معه في بيت واحد، والثاني هو مصطفى الذي رحل.. ترك البلد كله وسافر.. من حقه بالطبع أن يبحث عن الرزق أينما كان، هذا حقه الذي لاينازعه فيه أحد، ومع ذلك فقد وحشتني يا مصطفى... آه! كم على قلب الأم أن يتحمل من الأبناء!

إنني في حقيقة الأمر مدينة لولدي بما أنا فيه الآن.. فلولا بيت المسنين هذا الذي وضعاني فيه لكنت وحيدة لا أحد من حولي يرعاني أو يقدم لي الدواء.. هنا الجميع مثلي لا أهل لهم.. بالطبع لهم أهل ولكن أهلهم ليس لديهم الوقت فهذه قد أصبحت سنة الحياة.. إن لي زميلة هنا لا تكف عن الشكوى.. تقول إن أحدا لم يأت لزيارتها منذ ثلاث سنوات.. كم أرثي لحالها.. وكم أشكر الله أنني رأيتك يا شريف منذ شهرين وإن كنت لم أر مصطفى منذ ثلاث سنوات أنا الأخرى.. لكنه مسافر فماذا يفعل المسكين؟

في بعض الأحيان أتذكر بيتنا القديم قبل أن يموت زوجي.. كم

كانت الحياة جميلة.. كان شريف ومصطفى طفلين يمرحان.. كانت هناك أسرة بها أب وأم وأبناء، فماذا حدث؟ لماذا كان يجب أن تفكك الأسـرة هكذا يا زمن؟ لماذا كـان يجب أن يموت الأب ولماذا كـان يجب أن يرحل الأبناء؟ ولماذا كان يجب أن يغتصب منى بيتى وأطرد من بلادى.

إننى لا أشكو ولا أتذمر بل أحمد الله على كل شئ.. أحمد الله على أننى لم أكن فى البيت حين جاءوا يأخذونه.. أحمد الله أننى لم يلق على القبض وأساق فى الشوارع مثلما حدث مع أخريات.

لقد ماتت أول أمس زميلتى التى كانت ترقد فى السرير الملاصق لسريرى.. كانت إنسانة هادئة زميلتى هذه ولم تكن تتكلم كثيرا ، لكنها كانت تنتحب طوال الليل.. كانت تخشى أن تتألم فى الموت.. لقد رأف الله بها وماتت فى نومها.. صباح أمس حين جاءتها الممرضة لتعطيها الحقنة التى كانت تبدأ بها يومها وجدتها قد فارقت الحياة أثناء الليل.

أما أنا فلا أخشى الموت.. إننى أعرف أن ساعتى قد دنت.. فالطبيب أخبر إبنى شريف فى آخر زيارة له منذ شهرين أن أمامى ستة أشهر على الأكثر.. لقد عرفت كل ذلك ، فهنا لا توجد أسرار.. لقد أخبرتنى الممرضة بنفسها.

فى البداية بكيت كما لم أبك من قبل.. لم يكن ذلك خوفا من الموت وإنما حزنا على أنى سأموت وحدى هنا بعيدا عن ولدى بعيدا

عن بيتي.. لكن ماذا بمقدوري أن أفعل؟.. لقد واسيت نفسي بأنني على الأقل في الموت سأرى زوجي الذي أمضيت معه أحلى سنوات حياتي.. لم تكن أنذاك بهذه القسوة يا زمن.. كنت حانيا وكانت الحياة جميلة وكنت أعيش في سلام..

كم أتمنى أن تعود ثانية يازمن.. ولو ليوم واحد فقط. خذني ليوم واحد فقط إلى ذلك البيت القديم في يافا وليكن يوم العيد حين كان الولدان يطلبان العيدية من والدهما وكانا يضحكان كلما قلت : لهما هذه العيدية مني أنا أيضا ، ثم كنا نأكل الكعك والغريبة معا.. ويأتي الأهل والأصدقاء لزيارتنا من القدس وحيفا ونابلس والخليل.

أعد إلي ذلك الزمن.. أعد إلي زوجي الذي اختطفته.. أعد إلي ولدي اللذين فرقتهما.. أعد إلي بيتي القديم... أعد إلي وطني... أعد إلي كل ما أخذته مني عنوة ودون وجه حق.. أعده ولو لساعة واحدة قبل أن تأتي لتأخذ حياتي.

عد إلى نفسك أولا !

لا! ليس هذا هو أنت! لم يكن أنت ذلك الذى عاد إلى ! ليس هذا حبيبى! أين أنت إذن؟ من جاءنى فى الموعد كان يشبهك، بل كان صورة طبق الأصل منك، نفس عينيك اللتين أمضيت ثلاث سنوات كاملة أنظر إليهما كلما التقينا ، ونفس أحضانك التى طالما اكتنفنى دفئها، لكن شيئا ما لم يعد كما كان، لقد كنت كمن صوروه على هيئتك لكنه ليس أنت.. الشكل والهيئة نعم ولكن الروح ليست روحك أنت...

إن ما أعطى لعينيك شكلهما هو روحك التى طالما نظرت إلى من أعماقها السحيقة وما كان يشع من خلال دفء ذراعيك وصدرك العريض هو روحك أيضا ، فهل ذهبت عنك الروح ؟ مستحيل! لابد أن ذلك كان شخصا آخر غيرك الذى جاءنى.

ثلاث سنوات أمضيناها معا كانت هى عمرى كله، ثلاث سنوات حولتنى من شخص إلى شخص آخر، كنت فتاة بريئة ساذجة فصرت امرأة تدرك ما يعتمل فى نفسها من مشاعر وأحاسيس ولاتهرب منها إذا هى لم تتفهمها ، ولا تكبتها إذا هى خجلت منها، أن سيمون دى بوفوار تلك الكاتبة الفرنسية التى لم يفهم أحد المرأة مثلها ، قالت إن المرأة لاتولد امرأة وإنما هى تصبح امرأة وهذا ماحدث لى معك، لم أكن امرأة ، كنت طفلة ربما ، كنت فتاة بلهاء ربما، فجعلت منى أنت امرأة بكل ماتعنيه تلك الكلمة من أحاسيس

وخلجات وصرت بعد ذلك كلما شعرت بأنوثتى شعرت بك سواء كنت معى أو كنت وحدى ، فأنت صاحب هذه الأنوثة لأنك أنت الذى صنعتها بيديك.. بشفتيك.. بذراعيك... بأنفاسك.. بقبلاتك.

قلت لى إننا خلقنا أحدنا للآخر وكنت أشعر بذلك فأنا وأنت مكملان لبعضنا البعض فى طباعنا وأحاسيسنا ، فى أهوائنا وجنوننا، فى قبلاتنا وأحضاننا، فما كنا نلتقى حتى يتكامل الكل ونصبح كيانا واحدا لا يمكن أن ينفصل أو ينشطر.

ثم جاء ذلك اليوم الذى لا أعرف كيف جاء ولا من أين جاء، لم يكن مثل بقية أيام الرب، كان يوما من صنع إبليس لم يمسسه الرب برحمته.

نعم جاء اليوم البائس حين طردنا من الجنة، حين انشطر الكل وانقسم نصفين، وتدحرج كل نصف منه بعيدا عن الآخر، وكنت أنت الذى فعلت ذلك ، أنت الذى قلت لى إنه لا حيلة لك وإنك لابد أن تتزوج أبنة شريك والدك فى الشركة، قلت لى إنك رفضت وقاومت ، فلم تكن تتصور أن يكون لك غيرى لكن الأمر وصل إلى حد التهديد بطردك من البيت وبحرمانك من الميراث و.. و.. أشياء أخرى كثيرة كانت نتيجتها فى النهاية هى إخضاعك بالكامل.

أن الفجيعة التى رأيتها على وجهى فى ذلك اليوم وفى كلماتى ومشاعرى وفى كيانى كله كان الجزء الأكبر منها نابعا من أننى فجعت فيك أنت وليس فقط لهول ما أصابني، كيف قبلت هكذا

ورضخت؟ كنت أتصور أنك سترفض.. وستترك البيت وستتنازل عن الميراث.. وسنقف أنا وأنت عرايا أمام العالم نجاهر بحبنا ونقول للدنيا بأسرها: ليس لديكم جميعا ما يمكن أن يفرقنا.

ثم ما لم أفهمه أن يفعل أب في ابنه مافعل أبوك بك باسم حبه لك وحرصه علي مصلحتك ، أى حب هذا الذى يحطم إنسانا كى يخضعه لإرادته؟ أى حب هذا الذى يضع مشاعر إنسان تحت نعليه ويدهسها حرصا على مصلحته؟ ليس هذا حبا وإنما هو الأنانية فى أبشع صورها، وإن كان حبا فهو حب المال الذى يريد والدك أن يضاعفه عن طريق تلك الزيجة.

لن أخوض فيما تعرضت له بعد ذلك وأنا فى وحدتى بعيدة عنك، بعيدة عن نصفى الآخر الذى استؤصل من جسدى ومن روحى بسكين حاد، نصفى الآخر الذى كان هنا بين أحضانى وفجأة لم يعد له وجود ، كدت أصاب بانهيار عصبى وأخذتنى أمى رغما عنى إلى طبيب نفسى صديق للعائلة، لكى أتخطى المأساة لكن كيف ؟ فهناك من المآسى ما لا يمكن تخطيه كيف تتخطى البشرية مأساة خروج آدم من الجنة؟ كيف تتخطى خيانة صلب المسيح؟ كيف تتخطى عار مقتل الحسين؟ كيف تتخطى كارثة هيروشيما ونجازاكى وتكسير عظام أطفال الانتفاضة فى فلسطين؟ لا إن مافعله الطبيب هو أنه جعلنى أتعايش مع المأساة فقط تماما كما تعلم الإنسان أن يتعايش مع كبريات مآسى التاريخ وأن يواصل

حياته رغما عنها وكأن شيئا لم يحدث أو كأن حسه قد تبلد.

ستة أشهر كاملة لم أسمع منك كلمة واحدة، ماذا كان يمكن أن تقول؟ لم يكن هناك كلام يقال، ستة أشهر لم أكن أسمع فيها إلا ما كان يجرى من استعدادات للفرح الذى تسابقت الصحف بعد ذلك لنشر صوره حتى أطالعها فى كل ما تتناوله يدى من جرائد ومجلات.

لكنى أصارحك القول بأنه فى أحلك لحظات الظلام الدامس التى مرت بي كان هناك دائما فى داخلى شعور ما بأنك لابد عائد إلى.. شعور وضاء كالنجم الثاقب الذى يبرق وسط الظلمات.. لا لم يكن ذلك محاولة لطمأنه نفسى المسكورة أو لمواساة روحى المجروحة، وإنما كان إحساسا دفينا بما ينبغى أن يكون، كان يقينا راسخا بالحق الذى يجب فى النهاية أن يسود حين يقهر النور الظلام وترفع راية الانتصار عالية خفاقة فى عنان السماء.

كنت أعرف أنك لن تجد عندها ما كان لنا فى السابق ، هى لم تكن نصفك الآخر الذى بدونه لا تصبح واحدا صحيحا، نصفك هو أنا ونصفى هو أنت ولا أحد غيرى أو غيرك يمكن أن يجعل ذلك الواحد صحيحا.

وفى صباح مشرق من شهر مارس مع بداية الربيع عدت إلى وتعانقت روحانا من جديد، تداخل النصفان حتى صارا كلا واحدا ، وانتفضت الدنيا كلها من حولنا بالبرق والرعد تعلن على الملأ لحظة

البعث المنتظرة.

وقبلنا أن نواصل حياتنا سويا من موقعنا الجديد الذى وضعتنا أنت فيه، قبلنا أن نواصل علاقتنا فى الخفاء، وراء الأبواب، تحت الأرض، كحركات المقاومة الوطنية التى تختفى تحت الأرض لفترة لكنها تعود لتنطلق بعد ذلك لتحرير الأوطان من الظلم والهوان.

وهكذا وجدت الحب الذى كان يسبح فى بحار الدنيا كلها قد انحصر الآن فى قمقم مغلق كالجن الملعون حتى لايخرج إلى العلن، وجدت أن الحب الذى لم تكن الدنيا كلها تسعه قد دفن تحت الأرض حتى لا يكتشفه أحد.

لكن الأيام مضت بيننا وحركة المقاومة مازالت مخنوقة تحت الأرض والأوطان لم تتحرر، ظلت الأرض المحتلة محتلة، وظل المغتصب مغتصبا، وظل المقهور مقهورا.

لم يأت المخلص، وأما ذلك الذى عاد إلى فقد كان المسيخ الدجال، فقد بدأت تتلفت حولك خشية أن يراك أحد، وبدأت تنظر إلى ساعتك حتى لا يلحظ أحد تأخرك، وبدأ يتساءل القلق الذى فى عينيك أثناء رحلتنا الخلوية : متى سنعود؟

لا ليس هذا أنت، ذلك الإنسان المهزوز المهزوم لايمكن أن يكون أنت، ليس هذا هو الرجل الذى أحببت، لقد كان حبيبى جريئا مقداما مقبلا على الحياة، أما أنت فخائف متردد متراجع ، إنك رجلها هى ولست رجلى!

كيف تصورت أنك يمكن أن تعود إلى بهذا الشكل كالصورة المهزوزة التى ضاعت منها بؤرة التركيز بعد أن اهتزت الكاميرا فى يد المصور الرعديد الجبان؟ كان يجب أن تعود إلى نفسك أولا قبل أن تعود إلى.

متى العودة ياوطن؟

أيها الوطن العربى المترامى الأطراف ماذا دهاك؟ كيف أصابك الترهل وزال عنك عنفوانك القديم؟

يا وطنى قد تمزقت أوصالك وصار الأخ يقتل أخاه.. تفرقت الأمة وتجزأت فسهل إخضاعها واحتواؤها.. هانت الأمة حتى صارت تنقاد بالمغريات.. وتتوه فى المغيبات.. وتنصاع للتهديدات.

مينا.. يا أول وحدوى فى التاريخ إن من يدعون الإسلام صاروا يقتلون أشقاءهم فى الجنوب، والشمال كله غافل لايبالى كأنك لم توحد الشمال والجنوب.

يامن حملتنا الوصية بأقباط مصر أين منا طلعتك الشريفة فى هذا العصر؟

أحمس.. يامخلص تراب الوطن من دنس القدم الأجنبية تعال فأنظر ماذا تصنع ذات القدم بأشقائنا فى فلسطين! أنظر قدم الصلف والعنجهية والهمجية تركل أشقاءنا ثلاث مرات فى اليوم وتركل معهم كبرياءنا ولا أحد يتكلم.. وحين نتكلم ـ فليس هناك فى المقدور غير الكلام ـ يصدر الفيتو فيبطل حتى الكلام!

أى صلاح الدين.. يامن وحدت جند العرب خلف قيادتك فطردت أكبر جيوش العالم وحررت بيت المقدس.. الوحش جاثم على صدر الأمة العربية ينتهك قدس الأقداس فى الصبح والمساء بوحشية وقد

أطبقت يده اليمنى على عنق بغداد واليسرى على عنق بنى غازى والناس يتفرجون ولا يبالون!

ياعبدالناصر... يا من حررت أبناء وطنك الأكبر وصحت بالعزة والكرامة ، لقد عاد الأبناء إلى خنوعهم وصار التبلد هو عنوان الشعوب العربية!

آه يا وطنى.. متى تعود حرا كما كنت؟ متى تعود؟ حتى تعود الحبيبة.. ويعود الأخ والصديق.. ويعود الحبيب.. ويعود الزمن.. وتعود كما كنت يا وطن!

عرس يوسف

شهر نوفمبر هو دائما أفضل أشهر الخريف في مدينة القدس العتيقة.. أيامه تبدأ بطقس لطيف نفض عن نفسه حرارة الصيف، وتنتهي بمداعبة الشتاء قبل أن يحل ببرودته القارسة التي تستمر طوال الأشهر الثلاثة التالية.

كان اليوم هو يوم الجمعة الأول من شهر نوفمبر ولم تكن جدة يوسف تتوقع أن يصحو من نومه مبكرا ، لقد كانت هي التي توقظه كل صباح ليذهب إلى محل بيع الخضروات الذي كان يعمل به، أما في أيام الجمع فكانت تتركه إلى أن يصحو بمفرده وعادة ما كان ذلك قبيل صلاة الجمعة حيث كان يغتسل ويأخذ رشفة أو رشفتين من كوب الشاي الذي أعدته له جدته ثم يقبلها على جبينها ويخرج مسرعا إلى الجامع تاركا إفطاره كما هو.

أما في هذا الصباح فقد فوجئت الجدة العجوز بيوسف واقفا أمامها يقول لها وعلى وجهه ابتسامته المحببة التي لم تفارقه منذ

ولدته أمه قبل ٢١ عاما : صباح الخير .. وتذكرت الجدة ذلك الصباح حين وضعت بنتها مولودها الثالث، كان صباحا مثل هذا الصباح، كان الجو لطيفا وكذلك كانت الولادة ، لم تعان الأم كما عانت في ولادة على ثم سميح .. كانت الجدة هي التي رأت وجه المولود لأول مرة وهي التي أعطته اسمه.. سألتها ابنتها وعلى وجهها علامات الارتياح الذى يجئ بعد الإعياء: أهو ولد أم بنت؟ فقالت الجدة: إنه يوسف فأغمضت الأم عينيها وذهبت في نوم عميق.

كان يوسف قد أمضى ليلته السابقة يقرأ القرآن فى غرفته حتى مابعد منتصف الليل ، وكانت جدته التى لا تقرأ ولاتكتب كثيرا ما تأتي إليه بالمصحف وتطلب منه أن يقرأ لها قليلا ، كان صوته جميلا مثل وجهه وكان يدخل إلى نفسها شعوره بالارتياح والطمأنينة، لكنه فى تلك الليلة كان يقرأ القرآن لنفسه في غرفته المغلقة عليه، وبعد منتصف الليل بقليل أطفأ النور وحل بالغرفة السكون . ودعت الجدة الله أن يوفق يوسف ابن فاطمة في هذه الحياة الصعبة فقد كان هو كل ما تبقى لها بعد وفاة ابنتها قبل عشر سنوات وزواج على الابن الأكبر ورحيل سميح إلى خارج فلسطين بعد أن ضاق عليه الخناق تحت الاحتلال الإسرائيلى الذى لم يكن لينتهى.

قالت الجدة: لقد أعددت لك «البليلة» التى تحبها سآتيك بها وهى

ساخنة ، فقال لها: شكرا يا جدتي لكنى اليوم صائم، قالت: إذن سأبقيها لإفطارك فى المغرب ، فابتسم يوسف دون أن يرد وقبل جدته ليس فقط على جبينها كما كانت عادته وإنما أيضا على وجنتيها ثم ضمها إلى صدره بقوة وانطلق إلى خارج البيت.

وجلست الجدة مكانها وقد تجمعت فى عينيها دمعات صغيرة لم تنهمر وتذكرت فجأة ذلك الحلم الذى جاءها الليلة السابقة والذى كانت قد نسيته وحاولت أن تستعيد تفاصيله .. لكنها لم تتذكر إلا أن الحلم كان يدور حول عرس يوسف وكانت أمه تنثر حوله الزهور وسط زغاريد النساء .. من الخارج سمعت صوت محرك السيارة التى كان يوسف يحاول تشغيلها فانقطع فجأة خيط الحلم .. أرادت أن تخرج إلى يوسف لتنصحه بعدم سواقة هذه السيارة التى أتى بها البارحة مادام لم يحصل على رخصة قيادته بعد، لكنه كان قد انطلق بالسيارة إلى حيث لا تعرف، فاكتفت برفع يديها إلى السماء داعية أن يعيده الله إليها سالما، فلم يكن هناك أمان لأى شاب فلسطينى منذ حل بهم هذا البلاء الذى لم تستطع الحروب ولا المفاوضات ولا القوى الكبرى إزاحته عن صدورهم.

كان يوسف يجيد القيادة لكنه لم يكن قد استخرج رخصة قيادة بعد، فلم يكن قد مضى على خروجه من السجن إلا بضعة أشهر وحين دخل كان مازال دون السن ، لكنه كان ينوى استخراج الرخصة وقد سمعته يتفق منذ أيام مع أحد أصدقائه على

اصطحابه لاستخراج الرخصة، لكن ذلك كله لم يكن يجدى أمام غطرسة الجنود الإسرائيليين الذين ما إن يجدوا أى سبب يسمح لهم بتعذيب الشباب حتى ينقضوا عليه ليحيلوا حياته إلى جحيم لا يطاق.

خمسون عاما قضتها الجدة العجوز تعانى هذا الاحتلال وترفض رغم كل المعاناة أن تترك بيتها الذى ولدت فيه وتزوجت فيه وستموت فيه حين يوافيها الأجل، لكنها كانت الآن وحيدة إلا من يوسف الذى كبر وأصبح الآن شابا يافعا وأصبح الوقت الذى يقضيه بالسجون أكثر مما يقضيه بهذا البيت العتيق.

لم يكن يوسف قد اتم عامه الـ ١٥ حين دخل السجون الإسرائيلية لأول مرة مكافأة له على مقاومة الاحتلال عن طريق قذف سيارات الجنود الإسرائيليين بالحجارة، عندئذ انقطع يوسف لأول مرة عن دراسته التى كان متقدما فيها، مما ملأ جدته أملا فى أن يستمر فى الدراسة إلى أن يصبح طبيبا أو مهندسا فى عالم آخر سيجىء بعد التحرير يكون اكثر جمالا من هذه الحياة القبيحة التى أصبحوا يعيشونها .. لكن الآمال مجالها الأحلام ، والواقع يظل واقعا كما هو.

وانفصلت الجدة عن حفيدها الأصغر لأول مرة ودام الانفصال ستة أشهر كاملة مرت عليها وكأنها ست سنوات، كانت والدته قد توفيت قبل أربع سنوات أحست خلالها الجدة بمسئولية كبيرة تجاه

يوسف فها هو الآن قد انتزع من صدرها وقذف به في السجون وهو مازال صبيا.. وحين خرج يوسف من السجن لم يكن قد تغير كان مازال محتفظا بنضارته وابتسامته التي ولد بها في أحد أيام شهر نوفمبر ١٩٧٧، لكن الجدة كانت قد فقدت حدة إبصارها من كثرة البكاء فكانت تتحرك داخل البيت معتمدة على ذاكرتها ومعرفتها المسبقة بجغرافية المكان أما في الخارج فلم تكن تستطيع السير دون أن يرافقها أحد.

لكن قبل أقل من عامين كان يوسف مرة أخرى داخل السجن ، وفي هذه المرة تعرف يوسف على آلة التعذيب الإسرائيلية وتعرف أيضا على الجهاد والشهادة كان يسمع في الليل صرخات المعتقلين وهي تمزق صمت الظلام الدامس داخل عنبر السجن وكان خلال النهار يستمع إلى أعضاء جماعة «حماس» المعتقلين معه وهم يلقنونه أصول الشهادة في سبيل الله والوطن ، وما بين هذا وذاك لم يكن هناك طريق ثالث .. كان العالم الخارجي قد توارى بالتدريج ولم يبق أمام يوسف إلا حقيقة واحدة هي الاحتلال الإسرائيلي الجاثم على أنفاس الشعب الفلسطيني الذي كان متجسدا أمام يوسف في كل لحظة من لحظات وجوده داخل السجن، ولم يعد يدور بذهنه إلا سؤال واحد: ما العمل؟ وكيف يكون الخلاص؟ وفي بحثه هذا لم يكن هناك مجال للحديث عن المفاوضات أو اتفاق أوسلو أو السلام، فتلك كانت كلها أشياء يقرأ عنها في الصحف أما داخل السجن فلم يكن هناك إلا حقيقة واحدة هي الاحتلال الإسرائيلي

الذى يصحو عليه ويبيت فيه.

وهذه المرة لم يخرج يوسف بعد ستة أشهر كما حدث فى فترة سجنه الأولى فقد مرت الشهور وصارت سنين وهو مازال فى سجنه.. أربع سنوات قضاها يوسف داخل أسوار واحد من أقذر السجون الإسرائيلية ، دخله وهو فى سن الـ ١٧ وخرج منه وهو يقترب من سن الـ ٢١.. سن الرشد ، تغير الصبى وصار شابا ثائرا يحمل داخل جسده الهزيل مأساة شعبه التى امتدت نصف قرن من الزمان.

ومع ذلك فحين خرج يوسف من السجن كان وجهه مازال مبتسما لكن نفسيته كان قد حل بها الحزن المقيم ، أما جدته فقد فقدت بصرها تماما وأصابها الهزال فأصبحت تعتمد على جيرانها فى قضاء حاجاتها.

وصل يوسف بسيارته «الفيات» الحمراء القديمة إلى بيت سليمان فى الموعد المحدد وساعده فى ركوب السيارة إلى جانبه، فقد كان سليمان قد فقد إحدى ساقيه بعد أن أصيب فيها برصاص الجنود الإسرائيليين واضطر إلى بترها تماما، لذلك فقد كان يعتمد فى سيره على عكازين لايستطيع التخلى عنهما، كان سليمان هو ابن عم يوسف وكان يكبره بعدة سنوات لكن العلاقة بينهما كانت نتاجا للسنوات التى قضياها معا فى السجن فقبل السجن لم يكن يوسف يعرف سليمان جيدا فهو يقطن قرية قريبة من مدينة جنين

بالضفة ولم يكن يأتى كثيرا إلى القدس.

اتجه يوسف وبصحبته سليمان إلى المسجد وترك السيارة فى شارع جانبى وساعد سليمان على النزول منها واتجها معا إلى المسجد فصليا صلاة الجمعة كما كانا يفعلان كل أسبوع وما إن انتهت الصلاة حتى عادا إلى السيارة وانطلقا بها إلى مصيرهما الذى خططا له سويا داخل السجن، وما هى إلا لحظات حتى ارتجت أرجاء السوق الكبيرة بالقدس بدوى انفجار هائل وصل إلى أسماع الجدة وهى وحيدة بالمنزل، وبعد دقائق كانت أجهزة الإعلام تذيع أخبار السيارة الحمراء الملغومة التى انفجرت فى السوق والشابين اللذين كانا بها وتفاصيل الإصابات التى لحقت بـ ٢٤ شخصا كانوا على مقربة منها.

ودق أحد الرجال باب الجدة وحين فتحت له لم تتعرف عليه ليس بسبب ضعف نظرها فقد كانت عادة ما تستطيع تبين شخصية الموجود أمامها من صوته، ولكن لأنه كان غريبا تماما عليها، وسألها الرجل بسرعة: أين يوسف؟ ودون أن تجيبه سألته هى بدورها: لماذا؟ ماذا هناك؟ قال: لا شئ ولكن أين السيارة؟ قالت: أى سيارة؟ قال: السيارة الفيات الحمراء ، لقد اشتراها منى بالأمس فقط وقد سمعت اليوم أن هناك سيارة مماثلة قد انفجرت فى السوق!

وسقطت الجدة على الأرض مغشيا عليها فتجمع الجيران حولها

محاولين إسعافها، وحين عادت إلى وعيها قالت لهم: ألم أقل لكم إن يوسف لا يمكن أن يسرق؟ وكان الجيران قد سألوا يوسف فى اليوم السابق من أين أتى بهذه السيارة، لكنه كان يصمت ولا يجيب ، ومن ثم تصور البعض أنها سيارة مسروقة ، لكن ها هو الرجل الذى باعها قد جاء بنفسه وكأنه كان يقصد إبراء ذمة يوسف من هذه التهمة.

وذاع خبر العملية الانتحارية التى قام بها يوسف مع قريبه سليمان فى سوق المدينة وتعرفت السلطات على شخصية كل منهما، وهرع شقيقاه على وسميح إلى جدتهما ليكونا إلى جانبها ولإعداد ترتيبات تلقى التعزية ، لكنهما حين دخلا غرفته وجدا فيها ورقة صغيرة إلى جانب المصحف الذى كان يقرأ فيه يوسف فى الليلة السابقة، وكانت فيها الكلمات التالية: «ولاتهنوا ولاتحزنوا.. ولتكن دموعكم هى دموع الفرح، فقد نلت الشهادة وصرت الآن فى الجنة مع الصديقين والشهداء والصالحين».

وفى التعزية لم تقدم القهوة للمعزين ، بل الحلوى والعصائر والشربات.

شجرة الجميز

كان يوما شتويا باردا، وكانت شجرة الجميز العتيقة مازالت صامدة رغم السنين الطويلة التي مرت عليها منذ زرعت في أحد شوارع ضاحية المعادى الهادئة قبل أكثر من خمسين عاما.. فى ذلك الوقت كان كل شارع من شوارع المعادى يصطف على جانبيه نوع من أنواع الأشجار يختلف عن أشجار الشارع الآخر، وكان هذا الشارع هو شارع أشجار الجميز.

فى هذا اليوم كانت الرياح عاتية وكأن عاصفة قد هبت على المدينة تريد إزاحتها من مكانها، ومع هبوب الرياح مرت على شجرة الجميز ذكريات أيامها التى مضت كشريط سريع ينافس فى سرعته اندفاع الريح، فقد شهدت الشجرة تاريخا طويلاً منذ كان معظم من يمرون عليها من سكان الشارع من الإنجليز ببشرتهم التى فى جمرة لون علم الإمبراطورية، عندئذ كانت ضاحية المعادى تمتلئ بالخضرة التى تتوسطها فيلات لا تعلو بأى حال من الأحوال على ارتفاع الأشجار.

أما الآن فهما هى العمارات الأسمنتية الشاهقة تحل محل الفيلات القديمة والتى كانت مقامة فى معظمها على الطراز الإنجليزى القديم أو ما يعرف عند خبراء العمارة باسم «كولونيال» والتى هدمت الواحدة منها تلو الأخرى لتفسح المكان لتلك الأبراج التى يتكدس فيها السكان فوق بعضهم البعض، لتعلو عشرة أدوار أو عشرين أو ثلاثين.

ولو كانت الفيلات وحدها هى التى تهدمت لكان الأمر أقل خطورة، لكن المؤسف والمحزن هو أن الأشجار التى كانت نابضة بالحياة قد تم اقتلاعها هى الأخرى، فكما اختفت الفيلات القديمة من شوارع الحى الهادئ ـ أقصد الذى كان هادئا ـ اختفت معها أيضاً الأشجار التى كانت تعرفها شجرتنا واحدة واحدة كما كان كل من فى المعادى يعرفون بعضهم البعض.

كان ذلك كله قبل أن يهجم السكان الجدد على المعادى.. على القاهرة.. على مصر!! من أين جاء هؤلاء؟ لم تكن الشجرة تعرف، لقد عرفت الإنجليز وكانت تميزهم ببشرتهم الحمراء وغلظتهم فى التعامل مع السكان، وعرفت أيضا المصريين ذوى البشرة القمحية الذى كانت تملأ الطيبة قلوبهم، فقد كان عم حسين الجناينى مصريا.. وهو الذى يسقيها يوميا وينظف الأوراق التى كانت تسقط كلما ظهرت فى أغصانها أوراق جديدة، وكان الأطفال فى الحى مصريين، كانوا يقذفون لها بحجر صغيرة فتفيض عليهم بثمارها

الشـهـيـة، وكـانـت هـى أيضـا مـصـرية فـمـاذا يمكن أن يكون أكـثـر مصرية من شجر الجميز.

إذن فـمـن أين جـاء ذلك الجنس الغـريب الذى أصـبح يحـيط بالشـجـرة فى حـيـهـا الهـادى؟ هم بالطبع ليـسـوا إنجليـزا، كـانوا يشبهون المصريين لكنهم لا يشتهون ثمارها كالمصريين وكـانت بهم غلظة كـالإنجليز، فلم يكن يبدو أن لهم شـهـيـة إلا للمـال وحده وذلك ليس مما تعـودته الشـجـرة العـتـيـقـة لا من المصـريـين ولا حـتى من الاستعماريين الإنجليز.

كم كانت شـجرة الجميز تشـتاق إلى أيام صباها حين كانت تلهو مع النسـيم وتتـلامس أغصـانها مع أغصـان أخواتهـا على جـانبى الطريق، تمامـا كـمـا كـان الأطفـال يمسكون تحت ظلـهـا بأيديهم البعض فى لعبة مرحة لا تنتهى.

أين هى تلك الأيام؟ وأين ذهبت بقية الأشجار؟ لقد مـضت الأيام يوما وراء يوم وسقطت الأشـجـار الواحـدة تلو الأخـرى، لم يكن يمر عام إلا وترى شـجـرة الجـمـيز إحـدى أخواتها تـهـوى صـريعـة وسط الطريق، وقـد خـرجت جذورها من باطن الأرض كالحيوانات النافقة التى تستلقى على ظهرها وقد ارتفعت أرجلها إلى السماء.

كم كـانت الشـجرة تبكى كلما شـاهـدت هذا المنظر البشع لإحدى أخواتها ملقـاة أمامـهـا بلا حـراك وقد هـجرت العـصـافير الأعشـاش التى بنتـهـا بين أغـصـانهـا وهبطت عليـهـا الغربان تنعق كـالبوم فى

مقابر الأموات.

كانت كل شجرة تبقى ملقاة هكذا عدة أيام إلى أن يجئ عمال البلدية بمناشيرهم الصدئة فيمضون اليوم في تقطيع أوصالها وتحميلها على سيارات النقل، ثم يرحلون بها وما أن يحل الغروب حتى يكون الشارع قد خلى من آثار الشجرة ما عدا الحفرة التى كانت تضم جذورها كالعش الدافئ، ويطلع القمر ليجد شجرة الجميز فى وسط الليل تبكى إحدى رفيقاتها اللاتى رافقنها رحلة العمر الطويل.

ومع مرور الوقت أصبحت شجرة الجميز وحدها فى هذا الشارع، فكلما سقطت شجرة كان مكانها يبقى شاغراً أو تزرع فيه شجرة أخرى من الأشجار المعروفة باسم «فيكس بنجامينا» وهى شجرة «شوارع» لا ترقى بأى حال من الأحوال إلى مستوى أشجار الجميز المصرية الأصيلة التي كانت تضفى على الشارع طابعاً خاصا تعجز عنه أشجار «الفيكس» هذه التى أصبحت الآن تحيط بها من كل جانب كما تحيط العمارات الأسمنتية بالقلة القليلة الباقية من فيلات الضاحية القديمة.

وبعد أن كانت الشجرة تمضى اليوم تتجاذب أطراف الحديث مع بقية أخواتها من أشجار الجميز الأخرى أصبح يمضى بها اليوم بأكمله دون أن تتبادل كلمة واحدة مع الأشجار الأخرى التى كانت تتحدث لغة غير ما تعودته من شقيقاتها وتستخدم كلمات غريبة لم تسمعها من قبل.

لكنها أحيانا وسط الليل حين كان يأوى الجميع إلى النوم كانت

تسمع صوت الأرض يأتيها من الأعماق، من تحت الرصيف الأسفلتي يواسيها قائلا: لا تبتئسي أيتها الشجرة الجميلة فأنا مازلت معك وسأظل احتضن جذورك فى جوفى كما كنت دائما.

كانت الأرض كثيرا ما تقول لشجرة الجميز العتيقة: إياك أن يدب اليأس فى نفسك. وإلا فستهوين كما هوت شقيقاتك الواحدة وراء الأخرى.. إنك مازلت قوية وجميلة رغم مرور السنين فاصمدى ولا تذهبى عنى فتتركينى وحدى مع شجرات «الفيكس» هذه البلهاء التى لا تكف عن اللغو والضجيج!!

وكانت الشجرة ترد علي الأرض قائلة: ولكن إلى متى؟.. إلى متى أظل أقاوم وقد ذهب الجميع؟ لابد أن يوما سيأتى أذهب فيه أنا أيضاً كما ذهبت بقية الأشجار.. لابد أن يوما سأتى تقطع فيه أوصالى كما حدث لشقيقاتى أمام عينى!!

ولم تكن الأرض تعرف كيف ترد على ذلك فكانت تكتفي بالقول: المهم أن نتماسك ونصمد إلى النهاية.

كانت شجرة الجميز ترتاح لحديث الأرض فتغمض عينيها وتنام هانئة إلى أن يطلع عليها النهار فتبدأ الأشجار الأخرى فى لغوها ويبدأ الشارع فى الضجيج وتبدأ القصة من جديد.

لكن فى هذا اليوم البارد ذى الرياح العاتية، لم تنم الشجرة طوال الليل إلى أن ظهرت أول أشعة الفجر. كانت شجرة الجميز هى أول شجرة ترى الفجر لأنها كانت أطول الأشجار وأكبرها

وكانت تمضى بعض الوقت تراقب الفجر البعيد فى السماء فتراه لم يتغير منذ عرفته فى صباها حين لم تكن العمارات السكنية تقف حائلاً فى الأفق، كانت هى التى تعرف مقدم الفجر قبل بقية الأشجار، وقبل العصافير النائمة بين أغصانها.

فى هذا اليوم احتضنت الشجرة أول أشعة شمس الصباح الهادئة بمجرد أن لامست فروعها وقالت لها: كم سأفتقدك! فقالت لها الشمس: ولم هذا الحديث؟ لقد أتيتك اليوم وأنت مازلت شامخة فى مكانك وسآتى إليك غدا وبعد غد فأجدك دائماً فى انتظارى كما كنت طوال الزمان.

فأدمعت جميع أفرع الشجرة بقطرات الندى التى تركها عليها الليل وقالت لشمس الصباح: إن كل يوم يمضى يقربنى أكثر من النهاية، وأشعر أنى سأمضى قريباً كما مضت بقية الأشجار.

فنهرتها الأرض وقالت لها: إننى لا أرى معنى لهذا الحديث، قد يكون اليوم مكفهرا عاصفا لكن غداً سيكون يوما جديدا، ومادمت أحتضن جذورك ومادمت تتعلقين بأشعة الشمس فستظلين دائماً معنا ولن تسقطى أبداً.

لكن الرياح التى كانت تذهب بكل شئ لم يكن ليعجبها هذا الحديث فما إن فتحت الشجرة فمها لترد على الأرض حتى هبت ريح وقحة.

صفعت الشجرة على وجهها فأسكتتها.

وغضبت الأرض أشد غضب وكاد الفجر يعود أدراجه فلا يجئ في هذا اليوم الذي أقتحمته الرياح العاصفة بلا استئذان.

وسألت الأرض شمس الصباح: من أين أتت تلك الرياح الهوجاء؟ إنها ليست من رياحنا؟ فرد عليها الفجر: لقد شاهدتها من بعيد وهي آتية من قلب الصحراء، لكن لم أكن أتصور إنها بهذه الوقاحة!

وترنحت الشجرة يمينا ويسارا كما لم تفعل من قبل لكن الأرض قبضت عليها بكل قوتها وحاولت أشعة الفجر أن تصد عنها الرياح، لكن الرياح زادت من قوتها وهبطت فجأة إلى أسفل فأهاجت الأتربة التي كانت مازالت نائمة على الرصيف وقذفت بها في وجه الشجرة فأعمتها تماماً عن الرؤية، ومرت في هذه اللحظة سيارة نقل كالثور الهائج وأخرجت من مؤخرتها دخانا أسود كالهباب اختنقت به الشجرة حتى كاد يغشى عليها.

أهكذا يكون الصباح؟ ماذا حدث في الدنيا؟ أين نسيم الفجر العليل؟ أين تغريد العصافير؟ أين تحية الصباح التي كانت تتناقلها الأشجار على امتداد الشارع؟

وشعرت الأرض بما يعتمل في نفس الشجرة فاحتضنت جذورها بقوة وقالت لها شمس الصباح: لا تستسلمي.. لا تضعفي.. إنها لحظات فقط، إن العواصف لا تدوم، فتعلقي بأشعتي وستسلمين.

وفي هذه اللحظة دخلت الشارع من الناحية المقابلة لسيارة النقل

سيارة أخرى لأحد الشباب من أبناء هذا الجنس الجديد الذى غزا البلاد، وكان شابا يمضى الليل بطوله فى السهر واللهو ولا يعود إلى البيت إلا مع نور الصباح، كانت سيارته أمريكية فارهة وكان بها جهاز موسيقى كأنه مرقص متنقل، وما إن كادت تدخل السيارة الشارع حتى كان صوته يرتفع وكان الشارع قد تحول إلى ناد ليلى.

فى هذا الصباح كان الشاب مخمورا كعادته ويبدو أنه لم يكن يتوقع وجود سيارات أخرى سائرة فى الشارع فى هذه الساعة المبكرة من الصباح ففوجئ بسيارة النقل القادمة تجاهه فاندفع بسرعة إلى الجانب الآخر حيث شجرة الجميز فصدمها أسفل جذعها، فصرخت من الألم صرخة مدوية سمعتها بقية أشجار الضاحية.

ومن هول الصدمة المفاجئة أرخت الأرض قبضتها على جذور شجرة الجميز العتيقة ورفعت الشجرة يديها التى كانت ممسكة بأشعة الشمس فهوت بسرعة كالحيوان الجريح على أسفلت الطريق، وما إن ارتطمت الشجرة بالأرض حتى تطايرت من بين أغصانها العصافير التى لم تكن قد صحت من نومها بعد فأخذت تقفز فى الهواء كالفئران من السفينة الغارقة.

وبمجرد أن سقطت الشجرة صدمتها سيارة النقل من الناحية الأخرى، لكن الشجرة فى هذه المرة لم تصرخ فلم يكن بها صوت، والتاعت الأرض لهول الموقف وفزعت الشمس وحاولت كل منهما

إفاقة الشجرة لكنهما لم تفلحا فقد كانت الشجرة قد فارقت الحياة، وأعادت الأرض للشجرة الحديث الذى كانت تحب لكنها لم تكن تجيب وربتت الشمس بأشعتها الدافئة على أغصان الشجرة علها تنطق لكنها ظلت مكانها بلا صوت ولا حراك.

وانتحبت الأرض كما لم تفعل من قبل واحتجبت الشمس وراء سحابة سوداء لتدارى دموعها وأسقطت بقية أشجار الشارع أوراقها حزنا على شجرة الجميز، وقررت الشمس عدم الظهور فى ذلك اليوم الحزين وارتجت الأرض كأنها تريد التخلص من هذه المخلوقات القبيحة التى تقبع على ظهرها وعربدت الرياح يميناً ويساراً دون أن يوقفها أحد، وافتقرت الضاحية الهادئة بفقدها شجرة أخرى من أجمل أشجارها التى تعودت على وجودها منذ نشأتها قبل سنين طوال.

لكن ما هى إلا دقائق وبدأت الضوضاء تسرى فى الشارع وسمعت الأرض راكبى السيارات يقولون: يالهذه الشجرة اللعينة! لقد سقطت فى عرض الشارع وسدت علينا الطريق! ومن داخل إحدى السيارات الفارهة جاء صوت يقول: ما شجر الجميز هذا؟ أنحن فى الأرياف هنا؟ ومن داخل سيارة أخرى، صاح أحد الركاب: يا للمصيبة، أنظروا كيف حطمت الشجرة تلك السيارة الجميلة! وقال أحد السكان وهو ينزل من البيت ويهم بركوب سيارته: لماذا لا يقتلعون تلك الأشجار القديمة التى لا فائدة منها على الإطلاق!

إزيدورا.. وحابى!

فى زيارتى الأخيرة لمدينة الموتى «تاأونت» أو تونا الجبل بالمنيا توقفت طويلا داخل مقبرة الفتاة إزيدورا التى أقام لها والدها الحاكم الرومانى الحزين لوفاتها ضريحا صغيرا على الطراز المصرى القديم قبل عشرين قرنا من الزمان، فقد ماتت إزيدورا غرقا فى النيل وهى فى سن الـ ١٦، بعد أن أحبت ضابطا مصريا اسمه حابى كان يعمل حارسا فى بلاط الحاكم.. وفى غرفة الدفن بالمقبرة شاهدت مومياء إزيدورا بكامل زينتها راقدة على سرير صنع على شكل أسد على الطراز الفرعونى الأصيل، وتعلوه قوقعة.. وعلى عمودين يحتضنان باب الغرفة كتب والد الفتاة مرثية فى ابنته الشابة التى ابتعلتها مياه النهر كما ابتلعتها لوعة الحب قال فيها: «حقا يا إزيدورا إنهن الحور من عرائس النهر اللاتى شيدن لك هذه المقصورة، «نيلو» كبرى بنات النيل هى التى زينت مقبرتك بتلك القوقعة رائعة الجمال كالتى يضمها النيل فى أعماقه.. لن أقدم لك

يا ابنتى القرابين المشفوعة بالأنين لأنك غدوت فى عداد الآلهة فأنت شهيدة.. وداعا يا صغيرتى.. ها هى الفصول من كل عام تهدى إليك الماء الطهور، الشتاء يقدم لك اللبن الأبيض وزيت الزيتون، ويتوجك بزهر النرجس الذكى، والربيع يبعث إليك برضاب النحل والوردة المتفتحة التى تحبينها والصيف يهدى إليك شراب الكروم الخارج من معاصر باكوس».. وفى المساء وأنا جالس على شاطئ النيل خرج طيف إزيدورا من بين موجات الماء الراحلة أبدا إلى الشمال لتقص علىّ إزيدورا وحبيبها قصتهما التى وقعت أحداثها قبل ألفى سنة.

إزيدورا

كان لقاؤنا الأول فى الحديقة.. كنت أقف على حافة العشب الأخضر وأمامى ينساب النيل العظيم تعكس تموجاته الدقيقة وسط نسمة المساء التى بدأت تسرى فى الهواء ألوان قرص شمس المغيب ذى الأطياف المتعددة من الأصفر الواهن إلى البرتقالى الحزين إلى الأحمر الدامى.. فجأة وجدته أمامى كان شابا يافعا ممشوق القوام كأنه تمثال صنعته يد مثال بلاط قيصر من أحجار الجرانيت المصرية الوردية الداكنة.

رفع خوذته النحاسية فى احترام وقال: آنستى.. لقد أوشك النهار على الانقضاء، وأخشى عليك البقاء هنا فى الليل وحدك.

قلت: أنت..

قال: حابى من حرس القصر.. ألا تعرفينني؟

قتل: أعرفك بالطبع، لكنى كنت أحاول فقط تذكر اسمك.. كنت أعرف أن هناك صلة ما بينك وبين هذا النيل العظيم.

قال: حابى ليس إله النيل كما يقول علماؤكم الرومان، وإنما هو إله الفيضان.

قلت: أعرف ذلك جيدا.. وأنا لا علاقة لى بالرومان أو علمائهم.

قال: أنت إزيدورا ابنة القائد الرومانى لهذا الإقليم فى صعيد مصر.. ولابد أن تعليمك رومانى كاسمك وكدمائك.

قلت: بل اسمى يقول إننى هبة إيزيس ذاتها، أليس هذا معنى كلمة إزيدورا؟

وصمتت برهة ثم قالت: ثم أن هناك روحى؟

قال: فلتحفظها الآلهة من كل سوء.

قلت: إن روحى مصرية مثل روحك تماما، لقد ولدت على ضفاف هذا النهر الجميل وشاهدت إله الفيضان الأعظم حابى يفيض بالخيرات ١٦ مرة حتى الآن، فكم مرة رأيته أنت؟

قال وقد التمعت عيناه ببريق لا تعرفه إلا عيون المصريين: عمرى ٢٠ عاما.

وسرت فى أوصالى رجفة لا شعورية لاحظها حابى فقال على الفور: لقد بدأت نسمات المساء تتجمع حول أسوار القصر وربما

كان من الأفضل أن تدخلى القصر قبل أن تتسلق تلك النسمات الباردة الأسوار وتدخل بلا استئذان.

قلت: إننى أرتجف فقط عندما أنفعل، أما عن نسمات الليل فلا أمانع من فتح كل الأبواب للنسمات العليلة التى يرسلها إلينا النيل فى المساء.

قال: أخشى عليك مما يأتى فى أعقاب هذه النسمات والذى تحمله رياح الليل العاتية.. فأسمحى لى بأن أصحبك إلى القصر لتكونى فى آمان.

وقبل أن أرد بكلمة كان حابى ينحنى على العشب الأخضر ليلتقط شال الكتان ذى اللون السمنى الذى غزلته فتيات معبد حورس ويضعه برقة فى مكانه على كتفى العاريتين، ثم مشى أمامى وكأنه يرينى الطريق الذى على أن أسلكه، فأخذت أنظر إلى ظهره العارى الذى رسمت عضلاته خريطة أنهار ووديان بدت فى لون نيل مصر وقت الفيضان بوديانه الخلابة.

حابى

استدعانى رئيس الحرس وقال لى إن على أن أتوجه على الفور إلى الشاطئ الغربى للقصر لكى أصحب إزيدورا فى زورق بالنيل حتى إذا ما قاربت الشمس على الغروب عدت بها على الفور قبل أن تخرج التماسيح من الماء إلى دفء الشاطئ.

قلت لقائد الحرس: تعلم أن على الليلة حراسة بوابة القصر، فمن

الذى طلب أن أكون مع إزيدورا؟

قال: أنا الذى أطلب ذلك، فهل أخالك تعترض على ما يصدر إليك من أوامر؟!

والحقيقة أننى لم يكن لدى أى اعتراض على أمر رئيس الحرس، لكنى كنت فقط أريد أن أعرف إن كانت إزيدورا هى التى طلبتنى أم لا.. وها قد خاب أملى.. ذلك الأمل الذى أججته إزيدورا بنفسها يوماً بعد يوم منذ لقائنا قبل شهر كامل على حافة النيل فى الجانب الغربى من حديقة القصر، لكنى ما إن وصلت إلى زورقها حتى كان وجهها يتهلل فرحا لرؤيتى كما كان يحدث فى كل مرة، وبدت سنواتها الـ ١٦ تتراقص أمامى لتفضح مشاعرها.

كانت ترتدى ثوبا أبيض رقيقا يظهر مفاتن جسدها ذكرنى بذلك الذى ترتديه زوجة حاريحور في رسم بردية كتاب الموتى الذى أرانى إياه كاهن المعبد بأبنوب حين كنت صبيا فتصورته أجمل رسم فى الوجود، وقبل أن ألقى عليها التحية سبقتنى بالقول: كم أنا سعيدة أنك أنت الذى ستصحبنى اليوم!

وفى الزورق وقد أحاط بنا النيل من كل جانب، سقطت كل الحواجز التى تفصل بين هذه الأميرة الآتية من عالم الأحلام، فتلامست أيدينا وتعانقت ذراعانا وتداخلت شفتانا ونادت على باسمى الإلهى ففاض النهر فى دفقات متتالية عمدت روحينا وجمعت بين قلبينا فى رباط مقدس.

لم تنطق بكلمة، ولم أنطق أنا، لم يكن هناك مجال للكلام، كانت المشاعر هي المتربعة على عرش هذا اللقاء الذى طردت منه كل الكلمات ونفيت الأفكار خارج أسواره.

وبدأت الشمس تميل فى الأفق مؤذنة بدخول رع إلى مكمنه الليلى ليفسح المجال لنوت إلهة السماء أم كل من ايزيس وأوزيريس وست ونفتيس لتغطى العالم بلونها الداكن الذى تبرق فيه النجوم.

قلت: حان موعد العودة.

قالت: لماذا نلتقى دائما فى الغروب؟

قلت: لعل ذلك يكون إيذانا بشروق قادم.

قالت: أخشى ألا نشهد أبدا الشروق!

قلت: رع مكانه دائما فى قبة السماء، ومهما منح نوت من ساعات قليلات فى الليل فهو لابد عائد ثانية مع الصباح.

فأحاطت عنقى بذراعيها المرمريتين الملساوين، وبدا جسدها الرقيق وكأنه معلق فى رقبتى كمفتاح الحياة الذى يتدلى من عنق الفتيات.

قالت: فلنذهب إلى حيث أشعة الشمس الدائمة.. حيث لا ليل ولا ظلام..

والتصقت شفتانا واضعة ختم الإقرار بهذا الرباط الأبدى الذى صنعته لنا الأقدار.

هرعت داخل أروقة القصر إلى أن وصلت إلي غرفة أبى فسقطت تحت قدميه صارخة: ماذا فعلت بي يا أبي؟ لماذا فعلت ذلك؟ لماذا؟

قال: هل جننت يا إزيدورا كيف تتزوجين أحد أفراد حرس القصر؟ أنت سليلة أباطرة روما ووالدك هو حاكم أعالي مصر، ألا تدركين؟!

قلت: فلتنهار أعمدة روما فوق رءوس أباطرتها جميعا! لقد ولدت هنا وعشت حياتى كلها هنا ولن تكون لى حياة لا فى روما ولا مع أحد من أهلها!

قال: إزيدورا.. كيف تجرؤين؟

قلت والدموع فى عينى والدم يصعد إلى رأسى: أرجوك يا أبى أعد حابى من حيث أرسلتموه! لن تكون لى حياة بدونه.

قال وعلى وجهه ابتسامة حانية: ستعتادين الحياة بدونه يا ابنتى، وسرعان ما تنضجين وتعرفين الحياة بعيدا عن أحلام الشباب الطائشة هذه، فلا تتحدثى فى هذا الموضوع ثانية لا معى ولا مع غيرى وإلا نالنا جميعا الأذى.

فصرخت بكل ما تبقى من قواى التى كانت قد بدأت تخور: حابى! حابى! عله يسمعنى فى منفاه البعيد فيجئ إلى، أو تسمعنى الآلهة فتأخذنى إليه، لكن أبى أطبق على فمي وتطاير من عينيه شرر

الغضب وهو يقول: سأطبق فى المرة القادمة على أنفاسك إذا نطقت باسمه مرة أخرى.

ودارت الدنيا بى وثقلت دماغي فسقطت مغشيا علي.

حابى

تركت الخدمة بعد أن تقرر نقلى إلى شمال البلاد.. هربت من الحرس فلست أريد أن أخدم فى الشمال ولا فى أى مكان أخر.. إنى أمضى الآن وقتى جالسا على حافة النيل أحدث هذه المياه، أليست قادمة من عندها فى الجنوب، إذن فلماذا لا تخبرنى عما ألم بها؟ تلك الموجات الصغيرة التى كثيرا ما هدهدت جسدينا داخل الزورق، تلك الموجات التى أراها الآن أمامي وقد وصلت إلى الشمال لتلقى بنفسها فى النهاية فى غياهب البحار الهوجاء انتحارا على فراقنا، لكن لماذا أصيبت بالبكم فلم تعد ترد على سؤالي؟ ها هو الأفق يشتعل أمامي بالنار والأرجوان فتحترق أمام عينى مشاهد لقاءاتنا فى الغروب وتتحول إلى رماد ولا يجيبنى أحد؟ ماذا ألم بك يا إزيدورا؟ كتبت اسمك على أجنحة الحمام عله يصل فى طيرانه إليك، كتبت اسمك على رمال الصحراء وعلى حوائط معبد الكرنك بحروف سرية لا يعرفها إلا الراسخون في العشق فسخرت منى جميع آلهة الرومان ورددت السماء قهقهة ضحكاتهم ولم يجبنى أحد.. أين أنت يا إزيس.. ألم تسمى حبيبتى باسمك؟ أليست إيزيدورا هى هبة إيزيس؟ لن أقبل إلا أن تعيديها إلى.. أيها النيل

العظيم سأظل هنا فى مكانى على شاطئك حتى تأتى لى بحبيبتى إزيدورا .. لن أبرح مكانى قبل أن يستجيب إلى دعواتى إله الفيضان الذى سميت باسمه فيأتى لى بإزيدورا محمولة على موجاته.

إزيدورا

لن أبقى فى هذا القصر يوما واحدا بعد الآن، لقد تحملت العذاب شهورا طوالا وحان الآن وقت الخلاص، لابد أن إيزيس قد إستجابت لدعواتى.. ها هو إله الفيضان حابى الحبيب قد جاء يأخذنى إلى حبيبى حابى، إنى قادمة إليك يا حبيبى.. قادمة إليك يا حابى وحابى سيوصلنى إليك أينما كان منفاك البعيد، فالفيضان يغمر كل شبر من أرض مصر الطيبة التى نشأت على ترابها وتغذيت من ثمارها ولن يخفى عنه مكان لا تطوله مياهه المقدسة.

جاءت خادمتى على وقع أقدامى وأنا خارجه من غرفتى إلى ردهة القصر، لتصاحبنى أينما ذهبت تنفيذا للأوامر الصادرة إليها بألا تتركنى وحدى.. ياللأذى الذى سينالها اليوم من جراء ما أنا عازمة على فعله!

لم أعر الخادمة اهتماما ولم أجب عن تساؤلاتها التى لم أسمعها، فقد انطلقت أجرى من القصر إلى حافة الشاطئ الغربى الذى كنا نلتقى عنده فى الغروب.. كانت الشمس قد بدأت تميل وكأنها تريد أن تربت على رأسى لتبارك فعلتى وكانت موجات الفيضان المتدفقة تنادينى لتوصلنى إلى حبيبى، ودون أن أنظر

ورائى إلى أفراد الحرس الذين نادت عليهم الخادمة فبدأوا يتقدمون في خطي سريعة نحوى، لكنى قفزت بين ذراعى حابى فأحاطتنى موجاته على الفور ونزلت بى إلى باطن النهر فى عناق أبدى.

حابى

يقولون إننى جننت، لكنى أعرف جيدا ما أقول.. لقد رأيتها.. نعم رأيتها.. كنت جالسا فى مكانى هذا على حافة الشاطى فى ساعة الغروب فحدثنى حابى وقال: ها هى حبيبتك! وصعدت موجات الفيضان بجسد إزيدورا الرقيق من باطن النهر إلى السطح.. كان وجهها مشرقا وهى تنساب مع المياه.. رفعت ذراعيها المرمريتين تريد أن تحتضننى قبل أن ينتشلوا جسدها من الماء.. لقد أخذوها منى ثانية.. لكنى هذه المرة أعرف أن روحها معى.. لست مجنونا.. هى معى وستظل دائما معى.

سقوط نجم

حبيبتى.. يا من ألفت عينيك الصافيتين الحانيتين.. الليلة سأرى عينيك وسط الجمهور من جديد.. الليلة لن تعمينى أضواء المسرح المبهرة، ولا كشافاته الساطعة، عن رؤية عينيك.. وسط زحام المقاعد فى الصالة المظلمة سأرى عينيك مضيئتين مشعتين كنجمتين بارقتين في سماء الليل البهيم..

الليلة أحتاج عينيك اللوزيتين أكثر من أى وقت مضى.. هاتان العينان اللتان صاحبتاني فى ترحالى عبر مختلف مراحل هذه الحياة.. منذ بدايتى المتواضعة حتى وصلت إلى قمة المجد..

نعم حبيبتى.. فى الماضى لم أعر هاتين العينين اهتماما.. فالمرء لا يتوقف كل ليلة لينظر إلى النجوم فى السماء.. فقط حين يسقط فى النهاية الفارس من على ظهر جواده، ويجد نفسه ممددا على الأرض لا يقوى على الحراك، فهو ينظر إلى السماء.. لأنه يحتاج إلى وميض تلك النجوم.. يحتاج إلى أشعتها لترتفع به من على الأرض إلى أعالى السماء.

واليوم سأسقط ياحبيبتى من على جوادى العجوز.. هذا المسرح

العتيد الذى تحملنى وتحملته عشرات السنين منذ كان فتيا وكنت يافعا.. منذ كان يؤمه الجمهور فى كل ليلة ، يصفق له الجمهور فى كلة ليلة، يصفق له حتى تدمى أكفه وأنا أنحنى له إجلالا وتقديرا ، ثم أرفع رأسى أنظر إليه فى زهو وخيلاء.

كم ضحيت فى سبيل هذا المسرح.. هذا المارد الجائع دائما.. الذى لايشبع نهمه شئ.. نعم ضحيت بحياتى كلها من أجل المسرح..

كم سألونى: لماذا لم تتزوج؟.. كنت أقول: لقد تزوجت المسرح.. وأبناؤك؟.. أبنائى هم مسرحياتى.. وأسرتك؟.. الجمهور هو أسرتى.. لكن أين أسرتى؟ أين ذهبت؟ أين ذهب الجمهور؟

أجيبينى أنت عن هذا السؤال الذى لايعرف له أحد جواب.. لايمكن أن تكون الملاهى الليلية وما يشبهها من مسارح قد ابتلع جمهورى بأكمله.. جمهور المسرح الذى كان يصطف طويلا أمام الشباك لعله يجد مكانا فى كل عرض لى.

هذا الجمهور كان هنا.. فأين ذهب؟ ربما كنت أنت الوحيدة التى ظلت وفية لفنى العظيم.. أو ربما لشخصى المسكين الذى لم يعد يقوى على تحمل عذاب المسرح أكثر من ذلك.. عذاب المسرح الذى لم يعد مسرحا بل شيئا آخر لا أعرفه..

أنت فقط ظللت على عهدك.. تقابلنى عيناك فى كل ليلة مضيئتين كنجمة الشمال التى تملأ النواتى أملا بأنه على الطريق السليم.. أو كالنجم الثاقب الذى يخترق ظلمة الليل معلنا قدوم الفجر.

في البداية أخفيت حسرتى.. أخفيت فعل السنين بالمساحيق والألوان.. أخفيتها بإنقاص وزنى وصبغة الشعر.. الآن سئمت كل شئ.. لن أحافظ على الصورة القديمة التى عشقها الجمهور إذا كان الجمهور نفسه قد انصرف ولم يعد يأتى؟

أين ذهب الجمهور؟ لم تقولى لى يا حبيبتى أين ذهب الجمهور؟ هل هاجر هو الآخر إلى بلاد البترول أم مات ودفن ؟ قولى لى بربك أين الجمهور؟ أن المسرح بلا جمهور ليس مسرحا وأنما قبر موحش لا حياة فيه.. أن هذا لابد هو عذاب القبر الذى يتحدثون عنه وهو عذاب جد شديد.. إننى لن أبقى فيه لحظة بعد هذه الليلة.. سأترك هذا المسرح الذى تخلى عنى وعن رسالته السامية بالتدريج.. سنة وراء سنة.. فصار قبرا موحشا.. سأذهب إلى حيث لن يرانى أحد.. سأذهب إلى حيث لا جمهور ولا أضواء ولا أستار.. سأذهب إلى حيث لن ترينى ثانية ياحبيبتى.. لكنى أنا سأرى دائما عينيك الحانيتين.. سأخذهما معى فربما لم أفز فى هذه الدنيا إلا بهما.. لا.. لا أريد أن أرى دموعا فى هاتين العينين الصافيتين.. ان كل نجم مهما طال به الأمد لابد فى يوم ما أن يسقط.. كم استمتعت بالنظر إلى نجوم السماء وهى تأفل كالثمار التى حان موعد سقوطها..

حبيبتى يا من لاتجيبيننى.. هل أنت هنا أم لا وجود لك؟

هل ستكونين معى الليلة أم أنك أنت أيضا لن تأتى كالباقين؟!

عودة النشيد

حدثت المعجزة ونطق القبر.

حدثت المعجزة وعاد الأموات أحياء يرزقون.

لم يكن أحد يتصور أن ما كان يتناقله الناس من أن صوت منشد الجماهير عاد يسمع من جديد من داخل القبر الذى دفن فيه منذ زمان، هو حقيقة واقعة.

لكن ذلك حدث.

فقد سمع فى جميع أرجاء المدينة الصوت القديم.. الصوت العذب القوى ينشد من جديد ما لم يعد أحد ينشد به فى هذا الزمان.. ينشد الجمال والحق واليقين.

فى بادئ الأمر تصور الناس أنه هذيان.. كيف يمكن أن يسمع هذا الصوت العذب الرخيم وقد مات صاحبه منذ سنين؟.. إنه هذيان!

لكن قاطنى الأحياء القريبة من قبر المنشد كانوا يسمعون الصوت بين الحين والحين، ثم أصبحوا يسمعونه كل ليلة.. هو هو نفس الصوت القديم ونفس النشيد.

واجتمع أساطين الإنشاد فى البلاد الذين استبد بهم الخوف والرعاد ليتداركوا ما قد يصيبهم من بلاء.. وخرجوا يقولون للناس إن ذلك محض هذيان.. بل هو كفر وإلحاد.. إن الموتى لا يبعثون.. وما فات قد مات.

لكن الصوت عاد يسمع من جديد.. صوت قوى وجميل.. وازدادت حدته وعظمت قوته حتى صار يسمع فى جميع أنحاء البلاد.. يقول: نعم قد مت لكن الحق لا يموت.

واجتمع أساطين الإنشاد من جديد وخرجوا على الناس يقولون: إن الحق هو ما نقول وليس ما تنطق به القبور.. وأين كانت القبور طوال تلك السنين؟!

لكن صوت المنشد والنشيد أخذ يسمع من جديد.. صار يسطع فى الليل والنهار.. يبرق فى الليل ويشع فى النهار.. يقول: أنا الحق والحق أنا.. عودوا إلى فأنا اليقين.. حدثتكم فى الزمان فأنصتم إلى.. وأنشدتكم فطربتم للنشيد.. ثم مت وتركت لكم النشيد مدونا على ذهب بحروف من عبير.. وجاءكم الدجالون فأعطيتموهم النشيد، فأخذوا يبدلون فيه ويغيرون حتى صار النشيد غير النشيد.. باعوا الذهب وبددوا العبير فضاع الحق بين أصوات

المنشدين.. وأنتم سمعتم وطربتم للأصوات.. ونسيتم العهد واللقاء.. فهل مت أنا أم أنتم الأموات؟

واجتمع الأساطين من جديد وقالو: هذا سحر من عند الشيطان.. من اتبعه سلك طريق البطلان!

لكنه كان قد فات الأوان ولم يعد الصوت هو صوت القبور ولا الأموات.. فقد صار الآن يعلو من الربوع والنجوع.. أخذ ينبعث من صدور الأحياء.

ومع كل شمس ليوم جديد كان يزداد عدد المنشدين.. ينشدون نفس النشيد.. نشيد الحق وأغنية اليقين..

زجوا بهم فى السجون.. فتصاعدت أصواتهم من وراء الأسوار.. تنشد النشيد.

ألقوا بهم فى البحور.. فتعالت أصواتهم فى الأعماق.. تنشد النشيد..

أحرقوهم فى النار.. فاحتدمت أصواتهم كألسنة اللهيب.. تنشد النشيد.

وفى كل مرة كان يسمع صوت النشيد كانت تصيب الصاعقة قلب الأساطين فيخرسون ولا يعودون ينطقون.

وانتقل النشيد من لسان إلى لسان حتى صارت كل البلاد صوتا واحدا عذبا وقويا.. وعاد المنشد ينشد للحق والجمال.

رحيل جواد أشهب

ما أجمل أن يكون الرحيل في الخريف بعد زوال ضجيج الصيف وحرارته وعودة الحياة إلى سكونها ودفئها الهادئ المريح.. حين يعود كل إلى داره سالما راضيا فيعرف الاستقرار ويخلد إلى الراحة.

صباح يوم من أيام الخريف رحل الجواد بعد حياة حافلة بالحركة والنشاط.. ما إن بزغت شمس النهار الجديد بعد ساعات الليل الطوال حتى رحل إلى حيث كان يتطلع طوال حياته: هناك.. فوق المآذن والقباب حيث السكينة الأبدية.. حيث الخلود..

كان شابا فتيا دائم الترحال، جاب جميع أرجاء الدنيا وركض فى كل اتجاه. لكن قلبه لم يكن يحمل إلا صورة واحدة: مشهد قباب المساجد ومآذنها التى ترتفع شامخة فى سماء القاهرة.

ولد فى حى القلعة القديمة وسط قطعان غفيرة من الجياد، لكنه كان مختلفا عنهم جميعا.. كانت الجياد من حوله بيضاء كالحة أو

سوداء داكنة لكنه كان أشهب، فيه بياض حالم كالسحاب، وسواد مخملى كالليل، وتزين جبهته غرة بيضاء كأنها التاج الملكى.

كان جوادا جامحا لا يخفت له صهيل ولا تسكن له حركة.. فى دورانه المستمر كان يرسم دوائر متداخلة متكررة هي حلقات قباب مساجد السلطان حسن والحسين الشريف وجامع صلاح الدين.. دوائر لا نهائية تخترقها خطوط رأسية هى المآذن الشاهقة المدببة كريشة الفنان.

لكن حقد بعض أقرانه من الجياد البيضاء الكالحة أو السوداء الداكنة كان يطارده فى كل مكان كالقطة الضالة، وهو فى حركته الدائمة الدائبة لم يكن يعبأ لذلك.. كانت عيناه الكحيلتان على جانبى غرته البيضاء الناصعة تتجهان دائما إلى أعلى حيث قباب المساجد التى ولد فى كنفها وأحبها، حيث المآذن التى كانت تصعد به إلى العنان فى السماء.

كان دائما يتحدث إلى أبناء الحى الذين كانوا يتطلعون مثله إلى الارتفاع إلى حيث الزرقة والاتساع ولكنهم لم يكونوا يعرفون كيف يفعلون ذلك.. هو وحده الذى كان يعرف.. هو وحده الذى كان يستطيع أن يصعد على سرجه الجميل المطعم بالذهب والفضة إلى قمم المآذن.. إلى ظهر القباب.

لكن أقرانه من الجياد الأخرى البيضاء والسوداء لم تكن لتسكت على ذلك.. ألا يكفى أنه أشهب وهى كالحة أو داكنة؟! هل سيتحول

أيضا إلى معبود للناس يقودهم إلى تلك الأعالي التي يتطلعون إليها؟! يجب أن يتم تقييده بالحبال حتى لا يصعد إلى المآذن والقباب.. حتى لا يرتفع بالناس إلى هناك.. إلى العنان في كبد السماء.

لكن الجواد كان قويا فتيا فلم يقدروا عليه.. اكتفوا بمعايرته بشهبته البيضاء.. قالوا إنه لا هو بأبيض ولا بأسود.. قالوا إنه بين بين.

أما بين الناس فقد بدأ صيته ينتشر ويذيع.. بدأ أبناء الأحياء المجاورة يفدون إلى حي القلعة القديمة لينصتوا إليه وهو يحدثهم عن قمم المآذن وعن ظهر القباب..

وفي ليل بهيم بينما كان الجواد الأشهب نائما تسللت إليه بعض الجياد السوداء فلم يتبينها أحد في جنح الليل ثم غرس أحدهم خنجره المسموم في كبده وفروا جميعا هاربين.

وفي الصباح بدأ السم يزحف على جسد الجواد فيصيبه بالهزال. ويفقده حركته، ويذبل عينيه اللوزيتين، فخر الجواد على الأرض غير قادر على الحركة..

ثم جاءته الجياد البيضاء الكالحة في وضح النهار فقيدته بالحبال وكممت فمه الذي توقف عن الصهيل وسرقت سرجه المطعم بالذهب والفضة.

وعندما شاهد أهل الحي سرج الجواد الأشهب يباع في

الأسواق بأبخس الأسعار أدركوا أنه لابد قد أصابه مكروه فهرعوا إليه ليتبينوا الأمر، لكنهم حين وصلوا إليه كان قد فقد الوعى ولم يعد يدرى ما يجرى حوله.. فقط حين تعالى صوت بكاء الناس من حوله رفع جفنيه لأول مرة.. لكنه لم يرهم.. كانت عيناه قد فقدتا بياضهما الناصع وتحولتا إلى صفرة مريضة.. أحس بالناس من حوله دون أن يراهم.. حاول أن يتبينهم فلم يستطع. حاول مرة أخرى الفكاك من قيوده فلم يقدر.. حاول الصهيل فلم يصدر عنه صوت.

كم كانت معاناته وهو مقيد لا يستطيع الحراك، لا يستطيع القيام. لا يستطيع الصهيل، لا يستطيع الصعود.. وكم حزن الناس وقد فقد القدرة على أن يحدثهم ويحثهم على الصعود إلى قمم المآذن.. إلى أعلى القباب..

ومرت الأيام طويلة قاسية مريرة والجوادالأشهب فى مرقده والقيود تضغط على جيده الهزيل وتزداد إحكاما حول عينيه وعلى فمه، وفى النهاية دون أن يفتح الجواد عينيه ودون أن يفتح فمه.. نظر إلى ربه وحدثه.. تضرع إليه فى خشوع.. رجاه بكل ما تبقى فيه من قوة أن يصعد به إلى السماء.. فهو لا يستطيع أن يبقى طويلا طريحا على الأرض بعد أن عاش حياته كلها يتطلع إلى هناك.. فوق المآذن والقباب.

أمضى الليل بطوله يحدث ربه ومن عينيه الصفراوين انهمرت

الدموع غزيرة دافئة.. ومع فجر اليوم التالى كان قد ظهر على جانبي الجواد جناحان كبيران أخذا يتحركان في بطء إلى أعلى وإلى أسفل.. إلى أعلى وإلى أسفل. حتى ارتفعا بجسده الهزيل على الأرض شيئا فشيئا.. وما هى إلا لحظات حتى كان هناك: فوق قمم المآذن.. وفوق ظهر القباب.

وفي الصباح شاهده الناس بين السحب في السماء يصهل بين المآذن، يطير فوق القباب، وقد التمع جسده تحت أشعة شمس الخريف الهادئة. كان يشع على الأرض ضوءا نورانيا نادرا.. أخذ يمطر المآذن والقباب بالورد والزهور والرياحين من كل نوع ولون. وتوافد أبناء الأحياء في الساحة ليشاهدوا جوادهم الأشهب مشدوهين. بمنظره في السماء وهو يضرب بجناحين فيبدو وكأنه البراق، وقد ارتسمت على وجوههم علامات الثقة بأنهم، رغم كل الصعاب، سيتمكنون هم أيضا من التحليق مثله في يوم من الأيام هناك حيث لن يطولهم ولن يطاولهم أحد.. هناك: فوق قمم المآذن.. فوق ظهر القباب.

باب التوفيق

سوناتا شعبية فى ثلاث حركات

الحركة الأولى: بطئ حزين

لم تكن هذه هى الحياة التى كان يتطلع إليها محسن عبد الفتاح. آماله وهو شاب لم يتحقق منها شئ، كان يحلم بالنجاح والحب والمال لكنه لم يوفق فى أى منها، فها هو يعمل مدرسا لمادة الحساب التى كان يكرهها طوال حياته، وها هو العمر قد قارب على الأربعين دون أن يجد الحب الذى كان يتمناه، بل وجده لكنه لم يحصل عليه لأن عزة زميلته بالمدرسة لا تبادله هذا الحب، وها هو الراتب لا يكاد يكفى ميزانية الأكل وحده، وهو لا يحب الدروس الخصوصية لأنها تأخذ الكثير من وقته الذى كان يفضل أن يقضيه فى القراءة بعيداً عن مادة الحساب الصماء هذه.

تذكر محسن ذلك وهو فى طريقه إلى المدرسة صباح أحد أيام الشتاء القارسة فاشتد عليه الإحساس ببرودة الجو. كان يسكن فى

حى الحسين وكانت المدرسة فى ميدان باب الشعرية، ولكى يكون فى الفصل فى السابعة صباحا كان عليه أن يترك غرفته فوق سطح المنزل رقم ١٤ بحارة الدرب الأصفر بالجمالية فى السادسة والنصف ويمشى على قدميه حتى الميدان.

كانت الدنيا مازالت ظلاماً فى ذلك الصباح، والشتاء يعكس كالمرآة الفاضحة شتاء حياته التى كانت دائما باردة ملبدة بالغيوم كصباح ذلك اليوم الذى لن يعود إليه ربيع ولا صيف.

مرَّ على بيت السحيمى القديم الواقع فى نفس الحارة التى يقطن فيها فاسترعى انتباهه جمال معماره المملوكى الذى كان دائما يثير فى نفسه أحاسيس الجمال القديمة التى كان يشعر بها وهو صبى، لكن حياته كانت قد انحصرت الآن في حصص الحساب من السابعة صباحا حتى الثالثة بعد الظهر بتلك المدرسة الإعدادية الباعثة على السأم بحيطانها الأسمنتية التى لم تعرف لون الطلاء منذ أنشئت.

خرج من الحارة إلى شارع المعز لدين الله الفاطمي. كانت السماء قد أمطرت فى الليل ولم يبد لهذا الصباح شمس تجفِّف المياه التى غمرت الشارع فحولت ترابه الخفيف ذا اللون الطحينى إلى عجين داكن فى لون القطران.

اليوم شتاء قارس لكنه على الأقل يوم القبض. أربعة وسبعون جنيها وثلاثة وخمسون قرشا سيقبضها فى الفسحة بعد الحصة

الثالثة. نعم سيقبض عليها بكلتا يديه فهي كل ما يملك من أصل خمسة وثمانين جنيها هي مجموع راتبه. بالإضافة لبعض البدلات الأخرى التي لا يعرف تفصيلاتها فهي ملاليم زهيدة على أية حال.. كل ما كان يعرفه هو أنه يتم استقطاع أكثر من عشرة جنيهات من راتبه كل شهر كانت يمكن أن تسد بعض حاجاته الملحة.

استوقفه محل عبده صابر الذي كان مفتوحا على غير العادة في تلك الساعة المبكرة. كان عم عبده يتعامل في القطع الخشبية القديمة التي كان يبيعها لهواة جمع التحف الإسلامية.

كم من ساعات أمضاها محسن وهو صغير في محل عم عبده العجوز ينظر إلى تلك الأخشاب القديمة المطعمة بالصدف أحيانا أو المزخرفة بالأرابسك أحيانا أخرى، وكم كان يسمع من عم عبده قصة كل قطعة منها: هذه من جامع الأزهر القديم قبل تجديده، وتلك قطعة من نافذة قصر الوالدة باشا بقصر الدوبارة، وهذه قاعدة صنعت خصيصا لشيشة أفندينا..

في مرة وجد سيدة أنيقة تشتري من عم عبده بابا قديما ذا طراز عربي أصيل وسمعها تطلب من عم عبده أن يثبت في أركانه أربع أرجل ويطليها بنفس اللون البُني الداكن لتتحول إلى منضدة، وكره محسن تلك السيدة الأنيقة التي كانت ستستخدم هذه القطعة الإسلامية القديمة ليضع عليها ضيوفها أكوابهم ومنافض سجائرهم.

لكن عم عبده هذا كان رجلا غريب الأطوار وبعض سكان الحى كانوا يقولون إنه مجنون من كثرة معاشرته الآثار القديمة، وكان محسن يخاف منه عندما كان طفلا ويخشى أن يمر من أمام محله القديم، وقد ضحك عم عبده كثيراً حين اعترف له محسن بذلك منذ سنوات، وذكّره بحديثه له وهو طفل حين قال له إن كل قطعة عنده لها روح فهى ليست كالأخشاب الحديثة التى تصنع منها كراسى المقاهى أو دكك المدارس، وإنما بها عبق التاريخ.

نظر محسن داخل المحل فوجد عبده صابر واقفا وسط أخشابه وقد تحول وجهه إلى لون ترابى كالح وتلاعبت فى عينيه نظرة قلقة لم يعتدها.

ـ ماذا بك يا مع عبده؟

ـ زوجتى!

ـ خير يا عم عبده مالها؟

ـ فأجاب بكلمتين لا ثالثة لهما:

ـ تعيش أنت.

ثم تحولت نظرة القلق فى عينى عم عبده إلى سيل من الدموع وكأن هاتين الكلمتين كانتا تسدان قمقم الأحزان الذى انفتح فجأة بعد سنوات طوال.

وانتقل الحزن على الفور إلى قلب محسن:

ـ لا حولة ولا قوة إلا بالله! متى يا عم عبده؟

ـ ليلة أمس.

ثم أخذ العجوز يجفف دموعه بكم جلبابه القديم وهو يقول:

ـ لست أعرف ماذا أفعل. إنهم يغسلونها الآن بالبيت، والدفن سيكون بعد صلاة الظهر.

وأدرك محسن ماذا جاء بعم عبده إلى محله فى هذه الساعة المبكرة لكنه أدرك أيضا أن عم عبده لابد سينتظر كثيرا حتى يأتيه زبون يفك أزمته فزبائنه مثل تلك السيدة الأنيقة التى لا يزال محسن يتذكرها لا يأتون إلى المنطقة إلا فى الظهر فهم ليسوا مدرسين مثله يصحون من نومهم قبل ضوء النهار.

تذكر محسن الـ ٧٤ جنيها التى كان سيقبضها بعد قليل، لكنه كان مدينا لعليوة البقال بأربعة جنيهات فقال لعم عبده:

ـ سأقبض راتبى اليوم يا عم عبده فانتظرنى وسأعود إليك بعد قليل بسبعين جنيها إلى أن يفرجها ربنا.

وانطلق محسن بأقصى ما يستطيع وسط طين الشارع، بينما أخذ عم عبده ينادى عليه ويرجوه ألا يفعل، بعد حوالى الساعة كان محسن يقبل على محل عبده صابر لاهثا ويدس لعم عبده السبعين جنيها فى يده ويرجوه أن يغلق المحل ويعود لبيته.

ومرت ثلاثة أيام انتهت فيها جميع مراسم الجنازة والدفن والعزاء

لكن أحدا من زبائن عم عبده لم يدخل عليه المحل ليشترى شيئاً.

كان محسن قد دفع الجنيهات الأربعة لعليوه البقال فعاد يشترى منه «شكك» مرة أخرى بعد أن فرغ ما لديه فى البيت من جبن وزيتون وخبز، ولم يشأ أن يدخل محل عم عبده خشية أن يتصور العجوز وسط حزنه على زوجته أنه يذكره برد السبعين جنيها.

لكن فى اليوم الرابع، بينما كان محسن عائدا من المدرسة فى حوالى الرابعة بعد الظهر، نادى عليه عم عبده وقال:

- لا مؤاخذة يابنى! العين بصيرة واليد قصيرة.

فقال له محسن على الفور:

- لا داعى لهذا الكلام يا عم عبده، مستورة والحمد لله.

فقال له العجوز:

- هذه هي حال شغلتنا، قد نبيع بمائة أو بألف جنيه فى يوم واحد، وقد تمر أسابيع لا نبيع فيها شيئاً.

أعرف ذلك يا عم عبده، وأنا لم أطلب منك شيئاً.

لكن عم عبده وضع يده اليابسة على كتف محسن وقال له:

- تعالى معى يا محسن.

ثم قاده إلى داخل المحل.

كان محل عبده صابر يشبه سرداباً كبيراً لا أول له ولا آخر فما

إن تصل إلى حائط تتصور أنه نهاية المحل إلا وتجد ممراً آخر يقودك يمينا أو شمالا إلى حجرة تالية.

أخذ عبده صابر محسن من يده ومر به من حجرة إلى أخرى حتى وصل إلى نهاية المحل وهناك أشار العجوز بإصبعه المرتعشة إلى الحائط الأخير وقال فى صوت جهورى لم يسمعه محسن منه من قبل وكأنه يعلن اكتشاف كنز:

ـ انظر!

ونظر محسن مليا إلى الحائط وسط الضوء الخافت فى آخر المحل إلى أن بدأ شيئا فشيئا يتبين ما أمامه ثم فغرفاهُ:

ـ ما هذا يا عم عبده؟

ـ ألا ترى؟

واتسعت عينا محسن وهو ينظر إلى لوح خشبى ضخم يرتكن إلى الحائط الأخير لمحل عم عبده. لم يكن محسن قد رأى في حياته شيئا بهذا الجمال ولا زخارف بهذه الدقة ولا نقوشا بهذه الروعة، حتى خيل إليه أنه ينظر إلى شئ مسحور!

وتذكر محسن قول عم عبده له وهو صغير: إن كل قطعة عنده لها روح فأحس على الفور بروح هذه القطعة الفريدة تنبض أمامه بتاريخ الأجداد فتملأ المكان عظمة ومجداً وجلالا.

ولاحظ عبده صابر أن محسن كاد يغيب عن الوعى وهو يحملق

أمامه كالمخبول فقال على الفور:

- إن ما تنظر إليه الآن هو «باب التوفيق». إنه أقدم قطعة عندى فى المحل. وانتظر عم عبده إجابة من محسن فلم ينطق بكلمة. ظلت عيناه تحملقان فى هذه القطعة الفنية النادرة فى صمت.

فقال له العجوز:

- هو أحد أبواب القاهرة القديمة.. أنظر إلى النقوش إنها فاطمية. ويقال إن الذى بناه هو بدر الجمالى، لكنى أعرف أن الذى بناه هو جوهر الصقلى بانى القاهرة نفسها.

ثم همس لمحسن وكأن معهما بالمحل من لا يريدهم أن يسمعوه:

- لقد كان هذا هو البوابة الشرقية لقاهرة المعز وقد تم إكتشافه بمحض المصادفة أثناء بعض أعمال البناء التى كانت تجرى بمنطقة الدراسة عام ١٩٥٧.

وأفاق محسن قليلا ليقول لعم عبده:

- لكنى لم أسمع عن «باب التوفيق» هذا من قبل.

فردّ عليه عم عبده:

- نعم الناس تعرف باب النصر وباب زويله وباب الفتوح لكن ليسوا كثيرين الذين يعرفون «باب التوفيق». ليسوا كثيرين الذين يعرفون القاهرة كما نعرفها نحن الذين نعيش فى أحيائها القديمة.

سأل محسن:

ـ وماذا بعد اكتشافه عام ١٩٥٧؟

قال العجوز:

إن ما تم اكتشافه هو مجرد بوابة لها قبو من الحجر وعلى قمتها لوح حفر عليه بالخط الكوفى اسم «باب التوفيق» أما الباب نفسه بحلقه الخارجى والذى كانت تمر منه الجمال والخيول والأفيال فقد فُقد إلى الأبد.

فسأل محسن:

ـ وما هذا إذن؟

فقال العجوز:

إنه الباب الداخلى الذى كان يمر منه الناس. انظر هذا الحفر الدقيق كأنه صنع بالأمس فقط رغم أن الأيدى التى صنعته قد تحولت إلى التراب منذ مئات السنين.

ورفع عم عبده بنانه فى وجه محسن وهو يقول:

ـ لقد بنى هذا الباب عام ٤٨٠ هجرية.

ثم طرق على الباب بقبضة يده اليابسة فأطلق الباب صوتا رنانا ذا رخامة وجلال، فقال عم عبده:

ـ أتسمع صوته؟!

وفكر محسن أن الخشب بعدما يقرب من ألف سنة فإنه لابد قد جف حتى تحجر فاكتسب صوته تلك الرنة العجيبة التى لا توجد فى

الأخشاب الحديثة.

ودار عم عبده نصف دائرة حول الباب المسنود على الحائط الداخلى للمحل ثم قال لمحسن:

- إن هذا هو أكثر أبواب القاهرة القديمة بركة. لا أحد يعرف لماذا سُمّي «باب التوفيق» لكنى أنا أقول لك السبب فأنا أعرف عن هذه الأشياء أكثر مما يعرفه من يدرسون بالكليات: لقد سمي «باب التوفيق» لأنه يجلب التوفيق لكل من يدخله أما من يخرج منه..

ولم يكمل العجوز جملته بل ضحك فازدادت تجاعيد وجهه واتسع فمه الذى سقطت الكثير من أسنانه.

قال محسن وهو لا يزال مأخوذا بجمال الباب:

- لابد أنه يساوى كثيرا «باب التوفيق».

فذهبت ضحكة عم عبده:

- ومالى بما يساويه؟ هل سأبيعه؟

ثم قال في جدية وقد قطب حاجبيه:

- إنه تراث يا أستاذ محسن، لقد ورثته عن والدى الذى ورثه عن جدى ولم يفكر أحد فينا في أى يوم أن يبيعه. انظر إليه جيدا هل هذا يباع؟

ثم نقل عم عبده نظرته من الباب إلى وجه محسن الذى كانت ماتزال تعلوه علامات الدهشة والانبهار وقال:

ـ إن الدولة تعرف هذا الباب جيدا.

ثم أضاف:

ـ لقد أخطرت هيئة الآثار بوجود هذا الباب عندى وشكلت لجنة جاءت وفحصت الباب لمدة ثلاث ساعات ونصف الساعة ووضعت عليه بعض المحاليل التى تركت عليه بعض البقع. أنظر هنا فوق النحاس ها هى بقعة لعينة. ثم أرادت أن تقتطع منه «عينة» فرفضت. إن هذا الباب مثل أجدادى! كيف يمكن أن تترك أحدا يأخذ عينة من وجه جدك أو من ذراعه؟ لقد تعاركنا كثيرا وفى النهاية قالت اللجنة: إنه أثر ولا يجوز المتاجرة فيه فقلت لها: «من قال إننى أقبل أن أتاجر به؟ وبعد خناقة أخرى تدخل فيها بعض أبناء الحى لتهدئة الجانبين أخذت الحكومة علىَّ تعهدا بأننى لن أبيعه.

وصمت عبده صابر قليلا فقال محسن وكأنه يحدِّث نفسه:

ـ إن «باب التوفيق» هذا هو أجمل ما رأيت فى حياتى.

فابتسم عم عبده وقال له فى نبرة آمرة:

ـ غدا الجمعة لن تذهب إلى المدرسة فاتفق مع بعض زملائك وتعالوا إلىَّ قبل الصلاة لتحملوا الباب إلى بيتك.

ـ ماذا تقول يا عم عبده؟

فقال له العجوز فى هدوء:

ـ أقول لك أن تحضر غدا من يحمل معك الباب. إنه ثقيل جدا

وليس بأقل من أربعة رجال أشداء يستطيعون إزاحته من مكانه.

- لكننى لا أستطيع أن آخذه يا عم عبده.. ثم لماذا؟ لماذا آخذه؟ إنه ملكك أنت، هو جزء من محلك.

فاستطرد عم عبده دون أن يفقد هدوءه:

- لا لم يعد ملكى. قلت لك إننى لم أفكر فى بيع هذا الباب. لكن الحقيقة أن المرة الوحيدة التى لم أكن سأتردد فى بيعه هى منذ أيام قليلة، لقد تمنيت بالفعل لو أننى لم أكتب ذلك التعهد للحكومة. كنت بالفعل أريد بيعه. لكن فى هذه اللحظة بدلا من أن يدخل علىّ زبون ليشتريه دخلت أنت على براتبك الذى فك علىّ ضائقتى.

لكن محسن قاطعه:

- لا يا عم عبده إن هذا الباب لك ولا أستطيع أن آخذه أيا كانت الأسباب، إنه إرثك أبًا عن جد.

فابتسم عبده صابر من جديد وقال:

- لا يا محسن، لقد تخليت عنه يوم وددت أن أكون قادرا على بيعه فلم يعد لى. إنه لك أنت، فأنت الوحيد يا محسن فيمن أعرفهم الذى تستحقه لأنك تقدر قيمته. خذه يا بنى.

وبعد فشل المحاولات المستميتة التى بذلها محسن لإثناء عم عبده عن قراره انتقل الباب إلى منزل محسن عبد الفتاح فوق سطح العقار رقم ١٤ بحارة الدرب الأصفر بالجمالية.

ظل محسن ينظر إلى الباب طوال الليل، لم ينم فى تلك الليلة فقد استحوذ عليه «باب التوفيق» بزخارفه القديمة، الغائر منها والبارز، الدقيق منها والكبير. كانت به نجوم ودوائر ومثلثات. على أن أجمل ما كان فيه هو ذلك الخط العربى القديم الذى لم يفلح محسن فى أن يفك طلاسمه.

ومضت على محسن عبد الفتاح ساعات وهو يتأمل تفاصيل «باب التوفيق» وخشى أن يجن من عشقه للباب كما يقال عن عم عبده إنه جن.

كان الليل قد إنتصف حين قرر محسن أن ينصرف عن الباب ويأوى إلى النوم حتى لا يفقد صوابه، ولكن لم تمض ساعة واحدة حتى صحا محسن من نومه على صوت طرق على باب غرفته، لم يعرف إن كان يحلم أم إن هناك أحداً بالباب.

طرق الباب من جديد فهب محسن من رقدته بعد أن تأكد من أن هناك طارقا بالفعل. نظر فى ساعته فوجدها الواحدة بعد منتصف الليل فجلس في فراشه يتساءل عمن يمكن أن يكون هذا الطارق الذى جاءه فى تلك الساعة المتأخرة.

لم يكن محسن متعودا أن يزوره أحد فى غرفته فوق السطح، هل يمكن أن يكون مكروه قد وقع لأحد من أفراد أسرته وجاءه مرسال يبلغه بما حدث؟ لكن ما هو ذلك المكروه؟ هل حدث شئ

لوالدته المريضة؟ هل توفى أحد أقاربه؟ لا، لا يجب أن يتمادى فى مثل هذا التفكير.

طرق الباب من جديد، فترك محسن فراشه بدون تفكير واتجه إلى باب الغرفة حتى يقطع الشك باليقين. أيا كان الخبر فهو أفضل من الدوران فى حلقة مفرغة من الظنون. فض محسن القفل والمزلاج اللذين كان يحكمهما كل ليلة قبل أن ينام وفتح الباب فلم ير أحدا وسط الظلام الدامس.. خرج إلى السطح يبحث عن ذلك الطارق الخفى الذى جاءه فى جنح الليل فلم يجد أحداً. تلفت حوله يمينا ويسارا ثم دخل غرفته وأغلق الباب من جديد.

ولم تمض لحظات حتى عاد يسمع الطرق من جديد. هذه المرة لم يتوان. انطلق لكى يلحق بهذا الطارق الغامض قبل أن يختفى مرة ثانية. فتح الباب بسرعة وصاح.

- ادخل!

لكن أحدا لم يدخل سوى البرد القارس الذى لفح وجهه بقسوة. لم يتلفت هذه المرة يمينا ولا يسارا. أغلق الباب وأحكم القفل والمزلاج وقرر ألا يفتح ثانية.

لكن قبل أن يصل محسن إلى فراشه سمع طرقا من جديد.. لم يتحرك. أطرق السمع فخيل إليه أن الطرق آت من داخل غرفته وليس من خارجها.

وجد محسن أمامه مباشرة الباب القديم الذى أهداه إليه عم

عـبـده فى الصـبـاح. هل يمكن أن يكون الطرق قـادمـاً من «باب التوفيق» وليس من باب غرفته؟

وسمع الطرق مرة أخرى. نعم إنه بلا شك «باب التوفيق». نفس الرنة ذات الصوت الرخيم التى سمعها حين طرق عم عبده الباب بيده.

لم يخف ولم يندهش وكأنه شئ طبيعى أن يطرق الباب، فكل الأبواب تطرق. ما الغريب فى ذلك؟ ليس بالضرورة أن يكون الباب مسحورا لكى يطرق، وليس بالضرورة أن يكون هو قد جن ليتصور أن «باب التوفيق» يطرق داخل غرفته على سطح العقار رقم ١٤ بحارة الدرب الأصفر بالجمالية.

اتجه محسن إلى الباب القديم المرتكن إلى حائط غرفته وفتحه ثم خطا إلى داخله ونظر يمينا ويسارا يبحث عن الطارق فلم يجد أحدا، فلم يندهش لذلك أيضا فهو لم يكن يتوقع أن يكون هناك أحد خلف الباب، ولم يخرج محسن من الباب ثانية بل دار حول الباب واتجه إلى فراشه، وقد ارتاح أن عرف مصدر الطرق الذى كان يسمعه واطمأن أنه ليس من باب غرفته من جاء يبلغه بمصيبة أو بحادث فادح قد وقع وبمجرد أو وضع رأسه على الوسادة راح فى سبات عميق.

عندما صحا محسن من نومه فى اليوم التالى كان أول ما استقبل به يومه الجديد هو تلك الابتسامة العريضة التى وجدها قد

ارتسمت على وجهه. قام من فراشه وفتح شباك غرفته فاستنشق هواء الصباح المنعش وسمع زقزقة العصافير فى تلك الساعات الأولى الفاصلة ما بين الليل والنهار، ونظر فى الأفق البعيد فوق أسطح المنازل القديمة المجاورة فرأى مئذنة الأزهر الشريف شامخة في السماء تنادى بأذان الفجر، بينما أخذت الشمس تنشر أولى أشعتها على الحى القديم.

وشعر محسن عبد الفتاح أن حياته تبدأ من جديد.

اغستل بسرعة وصلى صلاة الفجر ثم بدَّل ملابسه وشرب الشاى وخرج من غرفته وهو يقفز فى رشاقة فوق سلالم الأدوار الثلاثة التى كان يتكون منها ذلك العقار القديم إلى أن خرج إلى الشارع.

لم يفكر محسن فى هذا الصباح فيما كان يشغل باله كل صباح وهو كيف سيدبر أموره إلى أن يتمكن عم عبده من رد راتبه الذى سلمه له فى بداية الشهر، ولم يفكر فى دينه لعليوه البقال الذى أخذ يتزايد كل يوم، فقد بدت له شوارع القاهرة القديمة فى هذا الصباح آية فى الجمال. لم يعجب فقط بهندسة مبانيها الإسلامية القديمة التى أخذ يمر عليها الواحدة تلو الأخرى وهو يخرج من حارة الدرب الأصفر إلى ميدان الحسين ثم شارع الأزهر إلى شارع الجيش حتى باب الشعرية، وإنما عجب أيضا لروح تلك المنطقة التى مازالت نابضة بالحياة منذ مئات السنين تحتضن مئات

بل آلاف البشر جيلا بعد جيل.

حين وصل محسن إلى المدرسة استقبله البواب مهللا.

ـ صباح الخير يا أستاذ محسن وصباح الفل والياسمين.

فأجابه محسن مبادلا إياه الابتسام:

ـ صباح النور يا حاج عطية.

فمال عليه الحاج عطية يسرُّ إليه بشئ:

ـ لا يفوتك أن تمر على عبود أفندى فى الخزينة لقد صرفوا لك منحة بسبب إشرافك على نشاط الطلبة فى حفل نهاية العام الماضى الذى حضره وكيل الوزارة.

وانشرح صدر محسن وهو يتلقى تلك الأخبار السعيدة من بواب المدرسة. فتلك المنحة غير المتوقعة ستسد فراغا كبيرا تركه غياب الراتب هذا الشهر فتقيم أوده أسبوعا آخر على الأقل، أو حتى أياما إلى أن يفرجها ربنا، لكنه حين وصل إلى الخزينة وجد أن المنحة أكثر من الراتب نفسه ١٥٠ جنيها. خصم منها ٢٦ جنيها ضرائب ودمغات وتسلم محسن. فى يده مائة وأربعة وعشرين جنيهاً بالتمام والكمال وكأنه تسلم هذا الشهر راتبين وليس راتبا واحدا.

وفى طريق عودته للمنزل بعد انتهاء المدرسة وعند مروره على دكان الحاج عبده صابر خرج إليه عم عبده يسأله عن أحواله ويعتذر له مرة أخرى عن تأخره فى رد السبعين جنيها التى

استدانها منه:

- أنا على استعداد أن أبيع أى شئ بالمحل وبأى ثمن لكننى لا أجد الزبون.

وطيب محسن خاطر عم عبده وطلب منه ألا يشغل نفسه بهذا الموضوع فقد انفرجت الأزمة بتلك المنحة التى تلقاها اليوم، ثم أكد له ألا يتردد فى طلب أى شئ إذا وجد نفسه فى حاجة.

كم هى جميلة الحياة حين لا تنهش عقل المرء وكيانه الحاجة المادية! عاد إلى غرفته فاغتسل واستبدل ملابسه ونزل مرة أخرى إلى الشارع. اليوم يستطيع أن يدعو نفسه على العشاء بأحد المطاعم بدلا من الجبن القديم وبعض حبات الزيتون اليابسة التى كانت زاده الوحيد طوال الأيام الأخيرة مع ما قد يكون لديه من كسرات الخبز الجافة. بعد العشاء سيجلس بعض الوقت فى قهوة الفيشاوى التى كان يعشقها، ويشرب شايا أو يدخن شيشة ويستمتع بجو المقهى القديم الذى كان يؤمه الكثير من المشاهير.

لأول مرة فعل محسن كل ما كان يريده دون أن يعترضه ضيق ذات اليد، وحين عاد فى المساء إلى غرفته فوق السطح كان هانئ البال وما إن دخل الفراش حتى غلبه النوم.

ولقد وجد محسن بعد ذلك أن المدرسة ليست كريهة بالقدر الذى كان يتصوره، رغم حيطانها الأسمنتية ولونها الرمادى الكالح، فجميع الزملاء يبتسمون فى وجهه، حتى الأستاذ فخرى مدرس

اللغة الإنجليزية الذى كان دائما يراه عابسا ولا يتذكر أنه قال له فى يوم «صباح الخير»؛ إذا به يقبل عليه وقد علت وجهه ابتسامة عريضة أظهرت أسنانه جميعا ولاحظ محسن لأول مرة أن على الجانب الأيمن سنتين ذهبيتين.

ـ مبروك يا أستاذ محسن المنحة. لقد كان اختيارا موفقا بالفعل. فلا أحد ينكر المجهود الجبار الذى بذلته وحدك فى الإعداد للحفل. فليحالفك دائما التوفيق.

وفى الفسحة تبعه تلاميذ الفصل وهم يبتسمون ويتهامسون. وقبل أن يصل إلى غرفة المدرسين نادوا عليه:

يا أستاذ! يا أستاذ!

ثم تحدث إليه أحدهم:

ـ أستاذ محسن. أيمكنك أن تحضر عيد ميلاد توفيق؟

وقبل أن يجيب عليه محسن كان طالب آخر يقول له:

ـ إن عيد ميلاد توفيق يوم الخميس وقد دعا جميع طلبة الفصل لكنه لم يدع أحدا من الأساتذة إلا أنت وأبلة عزة. فهل يمكنك الحضور؟

ونظر محسن إلى توفيق الذى لم يكن قد تكلم فوجد وجهه قد احتقن خجلا.

ـ ولماذا لم تدع بقية المدرسين يا توفيق؟

فقال الطفل متلجلجا:

- أنا أدعو المدرسين الذين نحبهم فقط.

كان محسن سيلبى تلك الدعوة بالطبع ليس لأن عزة كانت مدعوة مثله ولكن لأنه كان يحب طلبته ويود أن يقيم معهم علاقات تتعدى باب الفصل وإن كان لم يكن يعرف حتى هذه اللحظة أنهم يبادلونه هذا الحب.

أما بالنسبة لعزة فإنه كان قد فقد الأمل فى أن تبادله الحب منذ أكثر من ثلاث سنوات، كان بالطبع سيستمتع برؤيتها فى الحفل كما كان يستمتع برؤيتها فى المدرسة كل يوم لكنه لم يكن ينتظر أكثر من ذلك.

لم يكن محسن يعرف أن عزة على العكس منه كانت تتطلع إلى هذا الحفل الصغير الذى كانا سيحضرانه بعيدا عن عيون بقية المدرسين، وقد ارتدت له خصيصا فستانا أزرق فى لون البحر كانت تدخره للمناسبات الخاصة، ووضعت فوق عينيها ظل لون أزرق خفيفاً أقام علاقة حوار وانسجام مع الفستان، وأكد سواد عينيها اللوزيتين وشعرها الهائج الذى تركته يتهدل دون اكتراث فوق كتفيها.

لم يكن محسن قد رأى عزة بهذا الجمال من قبل، مجرد أن وقع نظره عليها نسى ما كان قد قاله لنفسه من أنه لا ينتظر كثيرا من هذه المقابلة. فما إن واتته الفرصة حتى تقرب إليها فاحتضنته على

الفور بعينيها دون أن تنطق، ولم ينته الحفل إلا وكانا قد تواعدا على لقاء آخر.

كان ذلك في صباح اليوم التالى مباشرة.. يوم الجمعة بقلعة صلاح الدين. كان يوما مشرقا خفت فيه البرودة وملأت الشمس الجو بضيائها الذى انعكس على خضرة الحشائش التي تحيط بالمكان فبعث إحساسا بالسكينة والابتهاج.

وجد محسن في نفسه شجاعة وثقة بالنفس لم يعهدهما من قبل فقرر أن يمسك بيد عزة وهما يتمشيان. لم تعترض بل أسلمت له يدها فى حنان وكأن ذلك حقه الطبيعى.

كانت ترتدى «بلوفر» أصفر فاتحاً فى لون عصفور الكناريا، وكان وجهها يكاد يخلو فى هذا الصباح الصافى من المساحيق، لكن شعرها الأسود الداكن لم يعرف لحظة سكون واحدة وسط النسمات الخفيفة التى ظلت تداعبه من اليمين ومن اليسار طوال فترة سيرهما فوق العشب الأخضر.

كم ودَّ محسن لو أنه أخذها فجأة فى أحضانه حتى يسكن هذا الشعر الهائج الذى ظل يشاغل عينيه كلما حاول تحويل نظراته بعيدا عن وجه عزة حتى لا يسبب لها حرجا.

على بعد أمتار قليلة كانت هناك مجموعات من الأطفال يلعبون ويلهون وهم يتقاذفون بعض ثمار البرتقال كأنها كور للعب:

يا برتقال أحمر وجديد.

بكرة الوقفة وبعده العيد!

يا برتقال أحمر وصغيَّر

بكرة الوقفة وبعده نغيَّر!

نظر محسن إلى زميلته بالمدرسة عزة توفيق التى أحبها فى صمت طوال أكثر من ثلاث سنوات فوجدها تنظر إليه هى الأخرى. لم تكن عيناها صامتتين، كان فيهما من الأحاديث ما لا تستطيع قوله الأفواه. أين كانت كل تلك السعادة مخبأة طوال السنوات الماضية؟ كأن زمن الضيم قد مضى ما بين يوم وليلة وجاء الآن وقت العيد والأفراح.

ظل ممسكا بيدها وهما يمشيان وكأنه يقتادها إلى مكان يعرفه، وظلت هى مستسلمة له وكأنها تعرف إلى أين يأخذها. عبر بها البوابة الكبيرة بعد أن قطع تذكرتى دخول ثم عاد يمسك بيدها داخل أسوارع القلعة.

قابلا فوجاً سياحياً من النساء وقد وقفن كالتماثيل أمام مرشدة مصرية تتحدث فيهن عن تاريخ المكان بلغة لم يفهمها محسن ولا عزة. قال إنها إسبانية، بينما قالت عزة: إنها إيطالية، وما هى إلا دقائق حتى بعُدَا عنهن. ومرت أكثر من الساعة وهما يتمشيان ويتحدثان. وأحس كلٌ منهما أنه يعرف الآخر منذ زمن بعيد. قادتهما أقدامهما إلى بقعة نائية داخل أسوار القلعة غطت أرضها رمال صفراء ناعمة خالية تماما من أية علامات لأقدام البشر وكأن

أحداً لم يسبقهما إليها منذ عهد الأيوبيين.

وجدا نفسيهما وحدهما تماما وقد احتضنتهما مباني القلعة التاريخية بأحجارها العملاقة تحميهما من كل متطفل ومتلصص.

توقف محسن عن السير وأحاط خصرها بذراعه فوضعت عزة ذراعها على كتفه، سحبها إليه فى رفق ثم أجلسها على الرمال الذهبية الملساء وقد أسندت ظهرها إلى سور القلعة الكبيرة.

كانت رعشة رقيقة قد بدأت تسرى فى أوصاله وشعر بلهفة شديدة تجاهها فاقترب منها بسرعة والتصقت شفتيهما بينما جاء صوت الأطفال عبر السور العالى:

ياوابور يا مولع.

حط الفحم.

وأنا أقولك ولع.

حط الفحم.

وتغيرت حياة محسن عبد الفتاح، أحس أنه يعيش حياة أخرى غير تلك التى كان يحياها.

لم تكن المسألة أنه وجد فى عزة الحب الذى كان يبحث عنه والحب قادر على تغيير نظرة الإنسان للحياة نفسها حيث تكتسب ذلك اللون الوردى الذى يزداد بقدر قوة الحب.

لم يكن هذا هو ما حدث لمحسن رغم قوة حبه لعزة ورغم الحياة

الوردية التى أصبح يحياها الآن. كانت المسألة تبدو له أكبر من مجرد تغير نظرته للحياة. فما علاقة حبه لعزة بالعلاوة التى تقاضاها؟ وكيف يؤدى تغير نظرته للحياة إلى أن ينال حب الطلبة وبقية العاملين بالمدرسة؟ لا. إن الحياة نفسها هى التى تغيرت، ولقد تأكد محسن من أنه يعيش الآن حياة جديدة عليه تماما.

كان ذلك هو ما أخذ يراود خاطر محسن وهو مستلق فى غرفته ينظر إلى «باب التوفيق» فى إحدى الليالى الدافئة بعد أن ولت ليالى الشتاء القارسة التى طالما عانى منها والتى كثيرا ما منعته من النوم. كان الشتاء قد انتهى بلا رجعة وجاءت عزة بالربيع الذى سرعان ما ازداد دفئه حتى تحول إلى صيف حار.

عاش محسن مع عزة ثلاثة أشهر كاملة بعد انتهاء السنة الدراسية. فما إن بدأت إجازة الصيف حتى شعر كل منهما أنه تعود رؤية الآخر يوميا ولا يستطيع العيش بدونه فأخذا يتقابلان كل يوم ما عدا يوم الجمعة حيث كان شقيق عزة الأكبر يأتى لزيارة أسرتها مع زوجته وأولاده الثلاثة فكان هذا اليوم يمر على محسن وكأنه دهر كامل. كان ينتظر بفارغ الصبر حتى يمضى اليوم بليله الطويل وتشرق شمس صباح اليوم التالى حتى يقابل عزة مرة أخرى.

لكن ها هى الإجازة الصيفية قد انتهت وسيعود المدرسون للانتظام بالمدرسة ابتداء من غد استعدادا لبداية الدراسة.

وبينما كان محسن راقدا فى فراشه فى تلك الليلة من شهر سبتمبر أخذ يتفحص تفاصيل الباب العظيم الذى أهداه له عم عبده صابر ثم نهض من مرقده واتجه إليه يتحسسه بيديه فوجد التراب قد بدأ يتراكم عليه فشعر بشئ من الذنب كيف جعلته حياته الجديدة يهمل «باب التوفيق» فلا ينظفه يوميا كما كان يفعل فى البداية؟!

وعلى الفور أحضر محسن ريشة تنظيف أخذ ينفض بها التراب من فوق الباب الذى كان لايزال فى وضعه المستند على الحائط منذ أن جاء به إلى الغرفة قبل أكثر من ثلاثة أشهر، وأحضر قطعة قماش أخذ يدعك بها المناطق الغائرة فى الباب ثم استدار إلى الجانب الخلفى للباب المواجه للحائط فوجده متربا أكثر من واجهته وحاول تنظيفه لكنه لم يستطع لضيق المساحة خلفه فدفع محسن الباب بيده فانفتح فخطا محسن خارجه وأكمل تنظيفه وأغلقه مرة أخرى ثم آوى إلى فراشه.

الحركة الثالثة: سريع متلاحق

في صباح اليوم التالى صحا محسن عبد الفتاح قبل موعده ليجد آلاما مبرحة تضربه على كل أجزاء جسمه تريد إيقاظه من نومه قبل موعده، وشعر بريح باردة تندفع من النافذة التى كان الهواء قد فتحها عنوة أثناء الليل.

وماذا حدث؟ هل حل الشتاء فجأة؟ صحيح أننا فى الأسبوع الأخير من سبتمبر لكن الجو لا ينقلب فجأة هكذا بين يوم وليلة.

حاول محسن أن يعود إلى النوم مرة أخرى بعد أن أغلق النافذة فلم يستطع. كان النوم قد ذهب بلا رجعة. ظل شاخصا ببصره إلى سقف الغرفة يعانى من الآلام التى فى جسمه ثم لم يجد بُدًّا من أن ينهض ويبدأ الاستعداد للذهاب إلى المدرسة.

كان هذا هو اليوم الأول الذى سيرى فيه عزة بالمدرسة بعد انقضاء الإجازة. كان متلهفا لرؤيتها فى المدرسة من جديد بعد أشهر الحب التى أمضياها سويا خلال العطلة الصيفية.

ترى كيف ستبدو؟ هل ستظل كما كانت فى العام الماضى؟ بالطبع لا. فى العام الماضى كانت عزة هى الحبيبة بعيدة المنال، أما اليوم فإنها تعود للمدرسة ومعها شئ جديد، شئ شاركا فى صنعه معاً طوال الأشهر الأخيرة حين كانا يتقابلان يوميا.

لكن حين وصل إلى المدرسة لم تكن عزة كما توقع. بدت كما كانت فى العام الماضى. كانت بعيدة وباردة رمقته بنظرة عابرة ولم

تستطع نظرته إليها أن تأسرها. كأنه غير موجود، أو كأن الحب الذى شاركا فى بنائه يوما بعد يوم غير موجود. ماذا حدث؟

حاول محسن أكثر من مرة خلال اليوم أن يتحدث إليها لكنه لم يستطع فانتظر حتى نهاية الحصة الأخيرة وخرج مسرعا من المدرسة فى إثرها. كان يعرف بالضبط طريق عودتها إلى المنزل عبر ميدان الجيش إلى شارع الأزهر حيث محطة الأتوبيس إلى بيتها بحى السيدة زينب. لحق بها بعد الميدان وقبل أن تصل إلى المحطة قبض بيده على ذراعها وأدارها إليه:

- ماذا حدث؟ ماذا بك اليوم؟

نظرت إليه نظرة فيها دهشة وغضب فى آن واحد وجذبت ذراعها بشدة من قبضته:

- كيف تجرؤ أن تمسك بى هكذا؟ هل جُننت؟

فانتقلت الدهشة إليه وكذلك الغضب:

- إن لم يكن بيننا شئ فعلى الأقل هناك زمالة فى العمل فردت بسرعة:

- وهل تعطيك الزمالة حق أن تجذبنى من ذراعى هكذا فى الطريق العام؟

- ماذا بك يا عزة؟ ماذا حدث؟

- لم يحدث شئ سوى أننى فكرت مليا فى كل شئ.

- متى؟ بالأمس؟ لقد كنا سويا يوم الخميس ولم أتركك سوى أمس الجمعة، فما ذلك التفكير الذى جعلك تتغيرين هكذا بين يوم وليلة؟

ردت عليه فى حدة:

- الذى جعلنى أتغير هو هذا الوضع الغريب الذى نحن فيه.

ثم واجهته وفى عينيها نظرة تحدٍّ:

- قل لى بربك ماذا سنفعل لتأمين مستقبلنا؟ هل هناك أى أمل فى أن نتمكن براتبك وراتبى أن نبنى مستقبلاً؟ ألم تفكر فى ذلك على الإطلاق؟ هل كنت تتمتع بوقتك معى دون أن تفكر فى المستقبل؟

وازدادت دهشته:

- إن هذا الوضع الذى تتحدثين عنه كان قائماً منذ البداية، ومع ذلك أحببنا بعضنا، فماذا تغير؟

لم تُجب عن سؤاله، أعطته ظهرها، وأسرعت خطاها نحو محطة الأوتوبيس فلحق بها مرة أخرى.

- يجب أن نتحدث. ماذا حدث؟ لقد تغيرت.

استدارت مرة أخرى ونظرت إليه نظرة لم يألفها فى عينيها من قبل.

- نعم قد تغيرت.

ـ هكذا بين يوم وليلة؟!

كانت قد وصلت إلى المحطة ولمحت أتوبيسها يستعد للانطلاق فقالت له بسرعة وقد بدت عليها علامات الضجر:

ـ نعم بين يوم وليلة. كل شئ فى الدنيا يتغير بين يوم وليلة.

وفى ثوان كانت قد اختفت داخل الأتوبيس واختفى الأتوبيس فى زحام شارع الجيش.

وفى خطى بطيئة ومثقلة عاد محسن إلى بيته على سطح العقار رقم ١٤ بحارة الدرب الأصفر بالجمالية وفوق كتفه حمل ثقيل لم يكن يعرف كيف سيحمله فى الأيام القادمة.

على مدخل الحى قابل عليوة البقال جالسا أمام محله يتشاجر مع بعض زبائنه. قبل أن يحييه بادره عليوة بالقول:

ـ ألن تدفع ما عليك أنت الآخر يا سى محسن؟ لقد انتظرت طويلاً لكنك لم تدفع ولا مليم، ألم يأتك أى دخل طوال الأشهر الماضية؟ ولا أى دخل على الإطلاق؟

فقال محسن على الفور حتى لا يستمر في هذا الحديث الطويل أمام الناس.

ـ أعطنى مهلة صغيرة، عدة أيام فقط، وسأدفع لك شيئا تحت الحساب.

فرد عليه عليوة:

ـ يفتح الله! المهلة التى تطلبها ستنتهى غداً يا أستاذ وعليك دفع الحساب كله وإلا..

وقبل أن يكمل قاطعه محسن بسرعة:

ـ نعم نعم غدا إن شاء الله.

فرد عليوه غير مبال بمحاولات محسن إغلاق الموضوع:

ـ وللتذكرة حسابك أصبح ٥٣ جنيها و٧٢ قرشا أريدهم جميعا بالتمام والكمال.

فلم يجب محسن ومضى فى طريقه إلى البيت. لكنه عند مدخل شارع المعز وجد جمهرة أمام محل عبده صابر. وما إن رآه أطفال الحى حتى شاوروا عليه قائلين:

ـ ها هو الأستاذ محسن عبد الفتاح.

ـ الأستاذ محسن وصل.

فتقدم إليه أحد أفنديات الحكومة الذين كان السكان قد التفوا حولهم وقال له مقطبا حاجبيه:

ـ أين «باب التوفيق»؟

فقال محسن:

ـ لماذا؟ ماذا حدث؟

فسأله أفندى آخر وكأنه وكيل نيابة:

ـ أنت متهم بإخفاء الآثار. أتعرف عقوبة تلك الجريمة؟

فقال محسن:

ـ إن عبده صابر..

لكن الأفندى الأول قاطعه:

ـ عبده صابر قد مات والناس يقولون إن «باب التوفيق» عندك أنت، فإما إنه أخفاه عندك أو إنك سرقته، وفى الحالتين..

فقال محسن فى دهشة..

ـ عم عبده مات؟ كيف مات؟ متى؟

ـ أين الباب؟ قل لنا بسرعة أحسن لك. إننا لم نأت إلى هنا لكى نقص عليك قصة وفاة عم عبده.

وترقرقت فى عينى محسن دمعة لم يلحظها أحد وهو يقول:

ـ لقد كان حيا يرزق بالأمس فقط.

لكن صوت أفندى ثالث جاء كالمدفع:

ـ أين «باب التوفيق»؟

فقال محسن مستسلما:

ـ إنه عندى. فجاءه الصوت مرة أخرى:

ـ إنه ليس ملكا لك حتى تضعه عندك.

وانتقلت الجمهرة من أمام دكان عم عبده إلى حارة الدرب

الأصفر فأخذت تزداد مع كل خطوة جديدة حيث كان المارة يسألون: ماذا هناك؟ وحين يسمعون القصة كانوا ينضمون إلى الجمع المتجه إلى بيت محسن عبد الفتاح لمشاهدة ما سيحدث هناك.

وأمضى محسن بقية اليوم يسلم «باب التوفيق» لمندوبى الحكومة ويكتب الإقرارات ويوقع الأوراق وسط جمهرة أهل الحارة وبعض سكان الحارات المجاورة. ولم ينفض المولد إلا بقدوم المساء فأغلق محسن على نفسه باب غرفته وارتمى فى الفراش بينما سمع من خلف النافذة صوت المطر الذى بدأ ينهمر معلنا حلول الشتاء.

وفى الفراش أخذ محسن يفكر فى حياته. ليست هذه هى الحياة التى كان يتطلع إليها. آماله فى الشباب لم يتحقق منها شئ. كان يحلم بالنجاح والحب والمال.. وها هو الآن قد وصل إلى الأربعين ولم يوفق فى أى منها.

الأتوبيس

مات السائق وترك الأوتوبيس المكتظ بالركاب معلقا على صخرة فوق جبل المقطم فى جنح الليل ترتكز عجلتاه الخلفيتان على الطريق الضيق بينما تتدلى إحدى عجلتيه الأماميتين فى الفراغ وهى وتدور فى الهواء.

لم يصدق أحد من الركاب ما حدث، ففى لمح البصر كان الأتوبيس قد انحرف عن طريقه وقذف بالسائق إلى الخارج حيث سقط من فوق الجبل جثة غارقة فى بحر من الدماء.

سقطت أيضا سيدة مسنة كانت تجلس على السلم الأمامى تاركة وراءها قفتها الكبيرة كما سقط عدد آخر من الركاب لايذكر أحد من هم ولا أين كانوا يجلسون.

الجثة الوحيدة التى كانت ظاهرة أمام أعين الركاب هى جثة السائق، ومع ذلك فإن أحدا لم يلق بالا إليه أو إلى ما أصابه فقد كانت المصيبة التى تركها وراءه تفوق فى هولها فجيعة الموت التى

لحقت به.

ماالعمل؟ وماذا باستطاعة أى من الركاب أن يفعل فى مثل هذا الموقف الذى لا يحتمل أى خطأ؟ الظلام دامس وأى حركة بسيطة من الركاب قد تتسبب فى الإخلال بتوازن الأتوبيس فينقلب إلى سفح الجبل وراء سائقه.

كان هذا ما أدركه الكمسارى الشاب الذى صاح فى الركاب من مؤخرة السيارة بمجرد وقوع الحادث أن يلتزموا جميعا مواقعهم دون حراك.

لم يدر أحد من الركاب من الذى يصيح وسط الظلام الحالك الذى عم السيارة ، ولكن الكمسارى أخرج من جيبه بطارية صغيرة أضاءها فبدد بعض الظلمات حتى بدأ الركاب يتبينون معالم بعضهم البعض .. ثم أخرج من جيبه علبة ثقاب أضاء بها قلة شموع كتلك التى تستخدم فى سبوع الأطفال كان ارتجاج السيارة قد قذف بها من قفة السيدة العجوز إلى منتصف المشى الواقع بين مقاعد الركاب.

وسرعان ما أضئ المكان وكأن الشموع ثريا كبيرة وسط السيارة فبدأ الركاب يهمون بالحركة لكن الكمسارى سارع برفع ذراعه متوعدا وذلك تحسبا لقوة الغريزة التلقائية التى كان يمكن أن تدفع بالركاب فى مثل هذا الموقف إلى خارج الأتوبيس فى هرج ومرج.

ومع الضوء الذى أضاءه الكمسارى ، ومع محاولته التحكم فى الموقف انقشع شعور الفزع الذى أصاب الركاب عند وقوع الحادث وحل محله شئ من الاطمئنان النسبى إلى أن هناك من يستطيع إدارة دفة الأمور بحكمة وتعقل بعد هذا الحادث الذى كاد يودى بحياتهم جميعا.

على أن أحدا من الركاب لم يكن قد ألقى بالا لهذا الكمسارى قبل ذلك، فقد كان جالسا هناك فى مؤخرة السيارة يقوم بعمله دون ضجة بل -كما كان يبدو فى ذلك الوقت- دون مقدرة فائقة أو لافتة للنظر.

ولكن أى مقدرة يمكن أن ينتظرها الإنسان فى عمل كعمل الكمسارى؟ الأمانة؟ .. ربما .. الدقة؟ ربما .. وقد كان هذا الكمسارى يتصف بالدقة والأمانة معا، ولكن هل سيكون بإمكانه أن ينقذ الركاب من هذا الموقف بعد أن انحرف الأوتوبيس وكاد يسقط بهم من فوق الجبل؟

لقد عم الركاب جميعا فى تلك اللحظة شعور غامض بأنه ربما يكون القدر قد اختار هذا الكمسارى بالذات لإنقاذ الموقف الذى وجدوا أنفسهم فيه ولم يعرفوا للخروج منه سبيلا.

وبدأ الكمسارى يتحرك بعناية شديدة إلى مقدمة السيارة ليتبين ما إذا كان من الممكن إدارة المحرك من جديد وسط شعور غريب ألم بالركاب هو خليط من الإعجاب والدهشة فى آن واحد.

ووسط المحاولات المضنية للكمسارى للوصول إلى الأمام دون أن يخل بتوازن الأتوبيس أخذ الركاب يتهامسون فيما بينهم وكان أول المتحدثين وأعلاهم صوتا هم اللائمون الذين ظلوا يعددون أخطاء السائق.

قالت إحدى السيدات:

- إن هذا السائق المجنون كان يتصور أن الطريق ملكه وحده يسير فيه كيفما يشاء يمينا ويسارا دون حساب.

وقال على الفور زوجها الذى كان دائما يتفق معها فى الرأى:

- فعلا .. كان عليه أن يراعى أن الطريق ذو اتجاهين .. لكنه لم يلق بالا للسيارات القادمة فى الاتجاه المضاد.

وهنا تدخل رجل آخر يضع على عينيه نظارة سميكة ويبدو موظفا بإحدى المصالح الحكومية:

- لا .. لا .. إنها السرعة .. لقد كان يقود السيارة بسرعة جنونية ولو أنه التزم بالسرعة المقررة لكان بإمكانه تفادى السيارة القادمة أمامه فى الاتجاه الآخر.

وانضمت سيدة تلبس ملاءة سوداء إلى المناقشة قائلة:

- اتجاه واحد إيه واتجاهين إيه؟! إحنا عايزين نخرج من المصيبة اللى احنا فيها دى.

فرد عليها رجل من مؤخرة السيارة:

- يا منجي نجنا من اللى إحنا فيه .. ياقادر على كل شئ.

وكان بين الركاب رجل ضرير غزا الشيب رأسه وزحفت التجاعيد إلى وجهه منذ زمن بعيد .. كان يلبس جلبابا متواضعا وفوقه بالطو بنى اللون وقد أراح ذقنه فوق ظهرى يديه المستقرتين فوق عصا غليظة أوقفها أمامه.

ظل الرجل الضرير يستمع إلى الجدل الدائر حوله دون أن يتكلم .. ثم عند لحظة صمت خلال المناقشة رفع الرجل رأسه من فوق عصاه ونطق قائلا:

- إن هذا الطريق ليس طريقنا.

ونظر الجميع إلى الرجل فى دهشة .. ولم تفهم السيدة ما قاله .. ولم يفهم زوجها أيضا .. ونظر إليه الموظف الحكومى فوجده ضريرا فلم يفهم هو الآخر .. واستمر الصمت لحظات تبادل فيها الركاب النظرات دون أن ينطق منهم أحد .. فقال الضرير:

- يبدو أنكم لم تركبوا هذا الأتوبيس من قبل ولاتعرفون الطريق الذى عليه أن يسلكه.

فردت عليه السيدة:

- إننا نركبه كل يوم منذ انتقلنا أنا وزوجى للسكن بالمقطم قبل أكثر من ٢٠ عاما.. ورد زوجها على الفور:

- إننا نمضى الساعات الطوال كل يوم من أيام الأسبوع فى

هذا الأوتوبيس.

فسألهما العجوز:

- الم تلاحظا أن هذا الطريق ليس طريقنا؟

فبدت على وجه السيدة علامات الدهشة وكذلك زوجها وقالت للعجوز:

- صحيح أننا نركب هذا الأوتوبيس كل يوم لكننا لانضيع وقتا طويلا فى النظر إلى الطريق مثل الأطفال الذين ينظرون من الشبابيك.

وقال زوجها:

- ليس لدينا وقت للنظر إلى الطريق.

فقال الضرير:

- إننى أركب هذا الأوتوبيس منذ افتتح الخط .. وأعرف هذا الطريق عن ظهر قلب .. أعرف كل انحناءة علينا أن نأخذها وكل عثرة علينا تفاديها .. إن هذا ليس طريقنا.

ولم يسمع الضرير أى تعليق أو رد فعل لما قاله فقال من جديد:

- أقول لكم إن الطريق الذى سلكه السائق ليس طريقنا لقد انحرف السائق عن الطريق وأنتم لاتدرون.

وهنا تدخل رجل فى مقتبل العمر كان يجلس خلف العجوز مؤكدا أن السائق كان قد اتخذ اليوم طريقا جديدا:

– لقد كنت أدرك ذلك تماما لكنى فى الحقيقة تصورت أنه ربما كان هناك إصلاح فى الطريق القديم أو أن السائق يجرب طريقا جديدا أفضل من الطريق القديم الذى أهلكتنا فيه المطبات.

فرد عليه شاب يجلس فى مؤخرة السيارة وقد بدت عليه علامات الانفعال:

– وهل يعقل أن يقوم السائق بالتجارب، ومعه هذا العدد من الركاب؟ هل هذا معقول؟ ثم أليس هناك خط سير محددا لكل أتوبيس عليه أن يسير فيه؟ .. أم أن المسألة هكذا سداح مداح؟

لكن الرجل قال له:

– لاتنس أنه كان السائق، وأن المسئولية كانت مسئوليته هو، وأنت قبلت أن تركب معه .. ولو أنه كان قد أوصلك بالفعل بهذا الطريق إلى حيث كنت تريد لما قلت ما تقوله الآن.

فرد عليه الشاب:

– لكنه أوصلنى وأوصل معى بقية الركاب إلى هذه المصيبة التى نحن فيها الآن .. ثم إننى لم أختر هذا السائق بالذات لأركب معه .. لقد كان على أن أركب الأتوبيس على أى حال فهذا هو طريقى.

واحتدمت المناقشة من جديد فى الوقت الذى كان الكمسارى قد وصل بعد عناء شديد إلى مقدمة السيارة وأخذ يحاول إدارة المحرك دون جدوى .. فصاح فيهم:

- كفى هذا النقاش ولنحاول توجيه طاقتنا إلى ما يمكن أن يساعدنا فى إنقاذ الموقف بدلا من هذا الجدل العقيم .. لقد تأخر الوقت ولانريد أن نضيع ماتبقى من الليل فى تقطيع ملابس بعضنا البعض.

ولاحظ الكمسارى استجابة من جمهور الأوتوبيس فهدأ من نبرة حديثه وحاول أن يفهمهم مايقصده:

- لماذا تتصرفون وكأنكم متفرجون؟ .. إن ماحدث لم يكن فيلما أو مسرحية نشاهدها ثم نتناقش حولها لنعرف من هو المخطئ ومن هو المصيب .. إننا جميعا شركاء فى هذا الطريق، بل وشركاء أيضا فى المصير .. لن ينجو منا أحد مالم تتحد جهودنا فى الاتجاه الصحيح قبل أن يطلع علينا الصباح.

وأحس الركاب من جديد بخطورة الموقف ، وبأنهم ليسوا أمام كمسارى عادى ، وأحس الكمسارى بالدور الذى كان مقدرا له أن يقوم به، فقال للركاب:

- من منكم يريد المساعدة فليأت معى .. أعتقد أننى أعرف ماينبغى أن نفعله حتى ننقذ الموقف.

وعلى الفور نهضت مجموعة من الشباب كانوا يجلسون فى مؤخرة السيارة وقالوا للكمسارى:

- نحن معك.

لكن الكمسارى أمرهم بسرعة الجلوس مرة أخرى قائلا:

- لا يجب أن يأتي أحد إلى المقدمة وإلا اختل توازن الأتوبيس وانزلق إلى الأمام بالركاب.

ونهض رجل آخر دون أن يترك مكانه وقال للكمسارى:

- إننى سائق فهل تريد أن أدير لك المحرك.

لكن الكمسارى قال له:

- لا .. إن المحرك به عطل ولن يدور.

فرد عليه الرجل:

- ربما أمكننى إصلاحه.

فقال الكمسارى:

- وحتى إذا أدرنا المحرك وتحرك الأتوبيس فقد يقفز إلى الأمام فنهلك جميعا.. فسألته السيدة:

-إذن ماذا تريد أن تفعل إذا لم تكن تريد أن يأتى أحد إليك لمساعدتك ولا تريد أن تدير المحرك؟

وقال زوجها:

- نعم ماذا تريد؟

فقال الكمسارى:

- إننى أريد سواعد الشباب منكم .. لن تنقذنا المحركات بل

ستنقذنا سواعدنا القوية .. أريد منكم جميعا أن تغادروا السيارة من الخلف .. وبما إن الباب الخلفى قد تهشم فلن نستطيع فتحه .. علينا أن نخرج جميعا من أحد الشبابيك الخلفية.

سيكون على الشباب أن ينزلوا أولا ثم يحاولون إنزال بقية الركاب من الشباك فى هدوء ونظام .. بعد ذلك من يريد منكم العودة إلى منزله فليفعل ذلك ومن يريد أن يبقى ليساعدنى فسأقول له ما ينبغى عمله حتى نعيد الأتوبيس مرة أخرى إلى الطريق .. وهنا صاح الرجل الضرير:

- لا فائدة!

فنظر إليه الجميع فى فزع وكأنه نزير الشؤم فقال:

- لا فائدة فى هذا الأتوبيس .. لقد ضل الطريق ولم يعد فيه فائدة.

فصاح فيه أحد الركاب:

- ماذا تقول أيها العجوز المخرف؟

- وصاح آخر:

- ألا ترى أن الأوتوبيس قد سد الطريق تماما؟ كيف نتركه هكذا ونمضى؟

وحسم الكمسارى المناقشة التى كانت على وشك أن تحتدم من جديد قائلا:

-بعد أن ننزل جميعا سيتحتم علينا انتشال الأوتوبيس من هذا الوضع الخطر ودفعه مرة أخرى إلى أعلى حتى نفتح الطريق أمام بقية السيارات فى الصباح.

وما إن انتهى الكمسارى من حديثه حتى تحول الجميع إلى العمل فبدأ الشباب ينزلون واحدا بعد الآخر من الشباك الخلفى بحذر شديد حتى لايختل التوازن فيضيع جهدهم هباء.

ثم قاموا بعد ذلك بإنزال الركاب واحدا تلو الآخر حتى نزلوا جميعا من الأتوبيس وطوال هذا الوقت كان العجوز الضرير ينظر إلى المشهد دون أن يتكلم وقد علت وجهه ابتسامة كتلك التى كثيرا ماترتسم على وجوه العميان.

كان الكمسارى آخر من ترك الأتوبيس وكان على العمل أن يستمر. فجمع الكمسارى الشباب وقال لهم:

- أمامنا مهمة شاقة وعلينا أن نرى إن كنا سننجح فيها .. علينا أن نحاول دفع الأتوبيس إلى الخلف حتى نخرجه من هذا المنحنى الخطر ونعيد عجلاته على الطريق.

وتحول الجميع مرة أخرى إلى العمل ، وتصبب العرق من الجباه، وجفت الحلوق ، وتعالت الأنفاس وسط هذا الليل الحالك، دون أن يتقاعس أحد أو يشكو.

وظل الجميع يعيدون المحاولة ، المرة تلو المرة لكن الأتوبيس لم يتحرك من مكانه ..ظل كما هو فى عرض الطريق يغلقه كالمتاريس.

العسكرية.

ونظر الكمسارى إلى العجوز فوجده مازال يبتسم ، وكأن الرجل قد أحس بنظرات الكمسارى فقال له على الفور:

– لا تضيع وقتك يابني ولا تبدد طاقات الناس مع هذه السيارة البالية.. قلت لك لا فائدة ، وفي لحظة نور وإلهام أدرك الكمسارى على الفور ما كان عليه أن يفعله .. وبدون تردد وقف وسط الركاب الذين أخذ العرق يتساقط من جباههم وعلت وجوههم علامات الإجهاد وقال لهم:

– لقد حاولنا إنقاذ الأتوبيس ، وكان علينا أن نحاول ذلك بكل الطرق، ولكن يبدو أن كلام شيخنا العجوز هو الحق .. نعم .. إن علينا أن نتخلص من الأتوبيس .. علينا أن نزيل هذه العقبة الصماء العنيدة ونفتح الطريق أمام السيارات وإلا فستواجه المنطقة كلها أزمة ضارية عندما يطلع النهار.

ورغم الإعياء الذى استحود على الجميع من جراء مجهود الساعات الماضية إلا أنه كانت قد نشأت بين الكمسارى والركاب علاقة ثقة واحترام من خلال المعاناة المشتركة جعلتهم يهمون جميعا إلى تنفيذ خطته رغم ما كانت تنطوى عليه من مجهود جديد.

ورفع الرجال مرة أخرى عن سواعدهم وبدأوا هذه المرة يدفعون بالأتوبيس إلى سفح الجبل.

وكانت علامات الفجر قد بدأت تظهر فى السماء ، ولم يكن أمام

الركاب وقت طويل لإتمام هذه المهمة فسرعان ما تطلع الشمس ويبدأ تدفق السيارات فى الطريق.

ولكن ماهى إلا دقائق حتى كان الأتوبيس يتدحرج من فوق قمة الجبل ليلحق بسائقه، وكأنه حيوان عجوز عفى عليه الدهر ولم يعد يصلح للعمل فذهب ليلقى حتفه ..

وما إن وصل الأتوبيس المتهدج إلى أسفل الجبل حتى ارتطم ببعض الأحجار الهائلة فأحدث انفجارا مدويا تولدت عنه نيران أضاءت السماء ذاتها قبل أن تطلع الشمس.

ونظر الركاب إلى الطريق فوجدوه سالكا تماما وكأنه لم يشهد أى حوادث أثناء الليل ، فتبدد تعبهم .. وحمل الرجال الكمسارى على أكتافهم وأخذت النساء تطلقن الزغاريد ، بينما كانت الطيور تصيح فى السماء معلنة مولد يوم جديد.

قتلت أمى

بمجرد وفاة والدى توليت الأمور العائلية باعتبارى أكبر الأبناء البالغ عددهم ١٥ ولدا وبنتا، فقد سلمتنى والدتى المفاتيح التى كان يحملها أبى وبعض الأوراق التى لا قيمة لها وقال لى الإخوة والأخوات إنهم يعتبروننى منذ الآن ولى أمرهم.

لكن أحدا لم يخبرنى عن مكان الكنز.

كنت أعرف أن والدى كان لديه بعض المال الذى اشترى به ذهبا قبل وفاته لكنى كنت قد تركت المنزل الذى لم أعد أطيقه بعد الحالة النفسية التى ألمت بى والتى جعلت أخوانى ينظرون إلى بنظرات غريبة لم أكن أرتاح لها، فذهبت لأعيش بمفردى، لذلك فلم أعرف أين وضع أبى الذهب.

جميع المفاتيح التى سلمتها لى أمى وكأنها تسلمنى مقاليد الحكم لم تكن تفتح إلا دواليب الخزين .. سمن وجبن ودقيق وأرز وفول وزيت ليس إلا.

أهذا هو الكنز الذى تركه لى والدى والذى أصبح الآن من حقى أنا باعتبارى كبير العائلة ؟ هل تسلمت ملكا خاويا؟

سألت أمى يوما عن الذهب الذى اشتراه والدى قبل وفاته فقالت إن الكنز الحقيقى الذى أصبحت أملكه هو الحب الذى تكنه لى هى وأبناؤها لأننى أصبحت أتولى أمورهم بعد وفاة الوالد.

ولم أقتنع بمثل هذا الحديث العاطفى الذى يقال فى الروايات ولا يعنى شيئا فى الواقع ، فسألت جميع إخوتى وأخواتى لكنهم جميعا أنكروا أى معرفة بهذا الموضوع ، بعضهم أبدى دهشة من سؤالى والبعض الآخر ظن أنى أمزح ، أما أصغرهم جميعا فقد ظل يقول للجميع إننى جننت ، هذا الوغد الخسيس إنه يريد أن ينحينى ويأخذ مكانى لكى يحصل هو على الذهب ..

حتى أمى بدأت تضيق بسؤالى المتكرر عن الذهب وأصبحت كلما سألتها: «أين الذهب يا أمى؟» قالت لى باستهزاء: «فى بطنى».

هل هى تستخف بى؟ أم إنها تقول الحقيقة؟ لماذا لا يكون الذهب فعلا فى بطن أمى ؟ لماذا لاتكون قد بلعته حتى تخبئه عنى وعن أبنائها، ولكنها بقلب الأم تريد أن تقول لى الحقيقة رغما عنها فيزل لسانها وتقول: «فى بطنى!».

واليوم قررت أن أبقر بطن أمى بحثا عن الذهب.

السكين موجودة، لقد أعطته لى أمى ضمن ما أعطته لى بعد موت والدى. وسأستخدم نفس ذلك السكين الذى كان والدى يذبح به

الماشية المريضة قبل أن تنفق لكي أبقر بطن أمي واستخرج منه الذهب لكن ماذا أفعل بأبنائها الذين يملأون البيت كالجيش؟ ١٥ ابنا وبنتا .. شعب بأكمله .. ماذا أفعل بهم؟

لقد دعوتهم جميعا لشرب الشاي بعد أن أذبت فيه الحبوب المخدرة لكي يغيبوا عن الوعي ولا يعودوا يدركون ماحدث من حولهم.

ولقد شربوا الشاي كما لم يشربوا من قبل .. شربوا الغيبوبة وشربوا النسيان وهم يتصورون أنهم يشربون الشاي.

وفي منتصف الليل كانوا جميعا كالجثث الهامدة بما في ذلك أمي التي كان بطنها الذي أنجب كل تلك الجثث يعلو ويهبط مع كل شخير يصدر عن أنفاسها المتهدجة. كان بطنها منتفخا. هل كان دائما منتفخا هكذا بسبب حملها المتكرر كل سنة؟ لابد أن عدد السنين التي قضتها وفي أحشائها طفل من هؤلاء الأموات يفوق تلك التي كانت فيها فارغة ، والآن هي حبلى من جديد لكن جنينها هذه المرة ليس جثة آدمية عفنة مثل تلك الجثث التي تحيط بها الآن في سبات يشبه الموت، لكنه الذهب الذي لايفنى ، هو المجد ثم هو جنيني أنا، لايمكن لأحد أن يدعي أبوته غيري أنا.

وحملت السكين في يمناي وحملت في يسراي خرقة قديمة حتى إذا صرخت أمي أو استنجدت أسارع بسد أنفاسها حتى لا يصحو أبناؤها من موتهم على صوتها.

لكن أمي لم تصرخ ولم تستنجد ، فقط فتحت عينيها ونظرت إلي بين النوم والصحيان وتركتني أفعل ما أشاء دون أن تتكلم ودون مقاومة، لقد كانت هي التى أعطتنى السكين ثم هى التى أعطتنى الآن روحها عن طيب خاطر.

لكنها خدعتني وضحكت على فقد كان بطنها خاويا مما كنت أبحث عنه لم يكن به ذهب .. فقط قلب وكبد وأحشاء ليس إلا.

والآن يقترب موعد الفجر وسيصحو أبناؤها .. ستنهض هذه الجثث من قبورها لترى مافعلت بأمهم؟ فماذا أفعل عندما تشرق الشمس؟ عندما يفيق الأبناء؟

عناق تحت الأنقاض

قامت الطائرات الإسرائيلية بشن هجوم ضار على الضواحى الجنوبية لغرب بيروت فانطلقت عبلة من مخيم شاتيلا وسط الأشلاء المتناثرة على الطريق والدخان المتصاعد إلى السماء تجرى فى اتجاه مخيم صبرا القريب حيث كان يرقد عدنان.

كانت إسرائيل قد شنت هجوما جديدا على الضواحى الجنوبية لغرب بيروت المحاصرة، وكانت عبلة تعرف بأن عدنان لابد قد أصيب فى هذا الهجوم لكن ما كانت تتمناه هو ألا يكون قد مات كما مات شقيقه قبل أسبوع واحد فقط حين ضمته هو ورفاقه شبكة صيد، خيوطها حديدية ارتفعت بها طائرة هليكوبتر إسرائيلية ثم ألقت بها من الهواء ملآنه بالشباب الفلسطينى إلى خارج بيروت .. أو كما مات والده عام ١٩٤٨ حين دهسه جنود «الهاجاناه» اليهود تحت كعوب أحذيتهم بعد أن رفض مغادرة بيارة البرتقال الصغيرة التى كان يملكها بيافا.

كان عدنان فى الثالثة والثلاثين من عمره وكانت عبلة في السابعة والعشرين ، كان هو فلسطيني وكانت هى لبنانية كان مسلما وكانت مسيحية، كان فدائيا وكانت ممرضة بمستشفى الصليب الأحمر ببيروت .. لكن شيئا ما جمع بينهما.

لم يكن ذلك مجرد حب كالذى نسمع عنه في القصص أو نراه في الأفلام ، كان أعمق من ذلك لأنه امتزج بالمصير الواحد الذى يجمع بين مواطنى الأقطار العربية كلها مسيحيين ومسلمين ، سمرا وبيضا مشرقيين ومغاربة.

لذلك لم تقل عبلة لعدنان أبدا إنها تحبه رغم مشاعرها القوية نحوه ولم يقلها هو لها وكأنه شيء طبيعي جدا أن يحب كل منهما الآخر، لكن في ذلك اليوم وهي تجرى فوق الأشلاء وبين الدخان قررت أن تقول لعدنان بكل ما في كيانها من قوة إنها تحبه. كما لم تحب أحدا من قبل، لذلك تمنت ألا يكون قد مات.

وتذكرت عبلة كيف واجه عدنان الموت حين أصيب منذ شهرين في بداية الهجوم الإسرائيلى ونقل إلى المستشفى الذى كانت تعمل به وهو فاقد الوعى، كان قد أصيب في ساقه بإحدى القنابل العنقودية التى ظلت نيراتها مشتعلة فيه لأكثر من ساعتين مما استوجب بتر الساق.

ومكث عدنان بالمستشفى ثلاثة أسابيع عاد بعدها إلى ذويه بالمخيم يحاول رفع روحهم المعنوية وتشجيعهم على المقاومة، لكنه

قبل أن يغادرالمستشفى كان قد ترك شيئا ما فى نفس عبلة كما كانت هى أيضا قد تركت شيئا فى نفسه.

وغادرت عبلة المستشفى هى الأخرى وذهبت إلى مخيم صبرا وراء عدنان ولم تعد تبرحه إلا لفترات قصيرة لكى تقوم بأعمال التمريض فى المخيمات الأخرى القريبة.

وأخذت العلاقة تزداد توثقا بين الممرضة اللبنانية والفدائى الفلسطينى مع كل هجمة جديدة للقوات الإسرائيلية ، كانت تشعر بأن نيران القنابل الإسرائيلية قد أضاءت لها الطريق إلى قلب عدنان، فأدركت حقيقة انتمائها الوطنى وأحست بخطورة قضيتها المصيرية من خلال حبها له ، وكانت تريد أن تقول له كل هذا فى ذلك اليوم وهى تجرى إلى المخيم.

وصلت عبلة إلى مخيم صبرا لتجد عدنان قد أصيب بالفعل كما حدثتها نفسها لكنها وجدت أيضا أن أمنيتها قد تحققت ولم يمت عدنان، وعلى الفور بدأت تفرغ لعدنان ماكان يجيش به صدرها وهى تنظف الجرح العميق الذى أصاب كتفه الأيمن وتستخرج منه الشظايا.

وما إن انتهت من تضميد الجرح حتى ضمها عدنان بقوة إلى قلبه بذراعه المصابة قائلا: «إننى أحببتك منذ رأيتك فى المرة الأولى» وسادت لحظة صمت قصيرة لم يسمع خلالها إلا أصوات الانفجارات البعيدة ثم قطع عدنان ذلك الصمت قائلا: «لو لم يكن

هذا حالى يا عبلة لتزوجتك فى التو واللحظة وليطلقوا علينا بعد ذلك جميع القنابل التى يملكونها لايهم».

ورفعت عبلة رأسها من فوق عدنان ونظرت إلى عينيه فوجدتهما قد امتلأتا بالدموع التى لم يرد لها أن تنهمر فقالت له: «بل سنتزوج الآن ياعدنان .. سأذهب لآتى بشيخ مسلم أو قس مسيحى ليزوجنا فورا ، إن الحياة قصيرة ولا يجب أن نفترق بعد اليوم».

وكانت عبلة محقة فى أن الحياة قصيرة، لكنها كانت قد نسيت فى غمرة انفعالها أن الطائرات الإسرائيلية كانت دائما تعود بعد قليل لتمطر الموقع الذى قصفته بوابل جديد من النيران يقضى على كل الجرحى الذين نجوا من القصف الأول ، فما إن انتهت عبلة من حديثها حتى كانت القنابل تنهال فوق رأسها هى وحبيبها وتدفن جسديهما فى عناق أبدى تحت الأنقاض.

الشاب الوطنى

كانت البلاد ترزخ تحت نير الاستعمار البريطانى فى عصر الملكة فيكتوريا وكانت هناك حركة مقاومة وطنية قوية تناضل من أجل الاستقلال.

وكان أحد أبطال المقاومة شابا وطنيا من أسرة كبيرة عرفت بتعاونها مع الاستعمار، ومثل معظم أبناء هذه الأسر تلقى الشاب تعليمه فى بريطانيا لكنه عاد منها ثائرا وانضم إلى صفوف المقاومة.

نعم طلق حياة الرفاهية التى وفرتها له عائلته وأصبح واحدا من المناضلين.

لم يعد يجد نفسه إلا بين رفاقه من الثوار ، فحديثه هو حديثهم واهتماماته هى اهتماماتهم وحياته هى حياتهم.

ولم يصدق أصدقاؤه القدامى ما حل بصديقهم الأرستقراطى ، كيف يهجر مكانته الطبقية المتميزة لينضم لهؤلاء البسطاء؟ كيف

ينتهى به المطاف بعد دراساته فى أعرق الجامعات البريطانية إلى تبنى أفكار هؤلاء الخارجين على القانون؟

إلى أن جاء يوم اعتقل فيه صديقهم الأرستقراطى وأودع السجن مع بقية الثوار فتأكد لهم أنه ضل الطريق بالفعل ، فقد اتضح أنه عنصر أساس فى حركة المقاومة الوطنية التى كانت تعم البلاد فى ذلك الوقت فى شكل مصادمات دموية بين شباب الحركة والقوات البريطانية.

وعلى أثر تصاعد المواجهة بين الجانبين وازدياد حوادث العنف ضد القوات البريطانية قامت حكومة الملكة فيكتوريا باستدعاء مندوبها السامى وتعيين مندوب سام جديد هو الدبلوماسى الشاب سير فيكتور سمارت.

وعندما شاهد الشاب الوطنى صورة المندوب السامى الجديد فى الصحف للمرة الأولى لم يصدق عينيه، فقد كان السير فيكتور هو نفسه «فيك» زميل دراسته فى بريطانيا، وكان سبب دهشته أنه يعرف أن «فيك» رجل صادق وشريف، وكما تشهد مناقشاتهما أيام الدراسة . متعاطف مع حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث ، فكيف يتم اختياره هو بالذات لتنفيذ سياسة القمع ضد المقاومة بعد فشل المندوب السابق؟

وما إن وصل سير فيكتور إلى القاهرة حتى تقابل الرجلان وجرت بينهما حوارات ممتدة اكتشف الشاب الوطنى خلالها أن

صديقه القديم لم يتغير منذ أيام الدراسة ، فهو يؤمن بحق البلاد في الاستقلال ، بل ويقول إن السياسة التي ستتبعها حكومته هي إتاحة المجال أمام الاستقلال، ولكن بشكل تدريجي حفاظا على المصالح البريطانية في المنطقة.

وتوطدت العلاقة بين الصديقين القديمين وأخذ الشاب الوطني يتحدث عن صديقه البريطاني في كل مكان ويحث زملاءه الثوار على تفهم حقيقة موقف السير فيكتور .. الشاب ذي الوجه الحسن الذي يختلف عن الوجه القبيح لسلفه الاستعماري العجوز.

وكانت أعمال السير فيكتور سمارت الذي أصدر بمجرد توليه منصبه الجديد عددا من التشريعات التي تتيح قدرا من الحريات للمواطنين، تؤكد وجهة نظر الشاب الوطني فيزداد اقتناعا بصديقه البريطاني، وبالتالي يزداد عدد من يقتنعون به من زملائه الثوار.

وهكذا استطاع الشاب الوطني خلال فترة قصيرة أن يقنع رفاقه بالعدول عن أعمال العنف ضد الرعايا البريطانيين والدخول في مفاوضات سلمية مع السير «فيك» كما أصبحوا الآن ينادونه.

لكن بعض علامات الاستفهام ظلت تدور حول الدور الذي يقوم به الشاب الوطني في هذا الموضوع: هل وقع فريسة لانتماءاته العائلية القديمة ودراسته البريطانية؟ فبالنسبة للكثيرين لم يكن المندوب السامي الجديد إلا القفاز الحريري الذي يغلف القبضة الحديدية التقليدية التي يفرضها الاستعمار على البلاد.

إلى أن جاء يوم ثارت فيه ثائرة البلاط البريطانى لإصابة أحد جنود صاحبة الجلالة على أيدى مجهولين من أبناء البلاد، اتجهت الشبهات بالطبع إلى الثوار وعقد اجتماع طارئ لمجلس العموم البريطانى واستدعى السير فيكتور سمارت إلى لندن.

وكانت المفاجأة حين تحدث المندوب السامى فى مجلس العموم فتوعد المتمردين واتهمهم بالعمالة وأكد أنه لن يجدى معهم إلا القمع، ثم طالب بضرورة إعدام جميع هؤلاء المخربين رميا بالرصاص فى أحد الميادين العامة حتى يستتب الأمن فى البلاد.

وكان لتصريحات الدبلوماسى البريطانى وقع الصاعقة بين صفوف المقاومة لكن أحدا لم يتألم لها مثلما تألم صديقه الشاب الوطنى الذى أغلق عليه بابه ولم يعد يقابل أحدا.

وعندما اقتحم عليه زملاؤه خلوته ذات مساء قال لهم فى هدوء: «لقد كنت أنتظركم، وأعرف ماتريدون».

وقبل أن ينطق أحدهم بكلمة شق الشاب الوطنى قميصه وكشف عن صدره قائلا: «هذا قلبى فاغمدوا فيه خناجركم، لن أقاوم».

لكن كبيرهم ابتسم فى سخرية وقال: «إنك دائما حسن الظن، إننا لن نغمد خناجرنا فى صدرك وإنما سنذيقك ما كنت تسوقنا إليه، ألم يطالب مندوب الاستعمار بإعدام الجميع؟ ستكون أنت أول من ينفذ فيه ما دعا إليه صديقك البريطانى».

وقبل أن ينطق الشاب الوطنى بكلمة قال له كبيرهم: «غدا

صباحا سنقوم بتسليمك لقوات الاحتلال لتعدم فى ميدان عام كما طالب صديقك مندوب الاستعمار.»

ولم يحاول الشاب الدفاع عن نفسه، فماذا عساه يقول؟ هل يقول إنه ربما فرضت الظروف على «فيك» أن يفعل ما فعل حتى تمر العاصفة؟ ولكن ما الفائدة بعد أن قام «فيك» بنفسه بتحطيم الصورة البراقة التى كان قد رسمها لنفسه فى أعين جميع المواطنين.

وقام زملاؤه بتقييده دون مقاومة منه واقتادوه إلى مخبأ يمضى فيه ليلته قبل أن يتم تسليمه للسلطات البريطانية فى اليوم التالى.

ولم ينم الشاب فى تلك الليلة ، أخذت الدموع تنهمر من عينيه فى صمت، وفى اليوم التالى عندما جاء الثوار كانت روحه قد فاضت .. ليس خوفا مما كان ينتظره من عقاب .. ولا قلقا على مصير حركة المقاومة فى ظل تلك الأوضاع الجديدة .. ولكن حزنا على ما أصاب صديقه .. مندوب الاستعمار البريطانى.

الرجل الذى عادت إليه ذاكرته

فاض به الكيل ولم يعد يتحمل أكثر من ذلك فذهب وألقى بنفسه فى النيل حتى يضع حدا لهذا العذاب الذى لاينتهى.

فقد أوصدت فى وجهه جميع الأبواب: لم يستطع الحصول على عمل بعد أن تخرج من الجامعة بتفوق، ولم يستطع أن يبقى بلا عمل، عرض عليه بعض الأصدقاء أن يعمل فى إحدى شركات الاستثمار الأجنبية فرفض لأنه لم يدرس الهندسة طوال تلك السنين الخمس ، لكى ينتهى به المطاف سكرتيرا - كما كان معروضا عليه- أو موظف علاقات عامة بإحدى الشركات الأجنبية.

كم من مرة كان يخطط هو وعلا زميلته بالجامعة التى أحبها وأحبته للمستقبل المشرق الذى كان ينتظرهما بعد حصوله على البكالوريوس ، عندئذ سيكون مهندسا ميكانيكيا وسيعمل بأحد المصانع الوطنية مثل الرعيل السابق من المهندسين الذين كان يسمع عنهم بالكلية: هؤلاء المهندسون العظام الذين أقاموا السد

العالى فى الستينات أو الذين أنشأوا مصانع الحديد والصلب العملاقة.

كان يحلم بأنه سيجد شقة صغيرة ولكن مناسبة ، وأنه سيتزوج علا ويبدآن حياتهما الزوجية ثم ينجبان أبناء وبنات يفتخرون بوالدهم للدور الوطنى الذى يقوم به من أجل بناء المجتمع الحديث، تماما كما كان هو يفتخر بمهندسى السد العالى والحديد والصلب.

كان يحلم ، وفى أحلامه لم تكن الشوارع غير مرصوفة ولاكانت وسائل المواصلات تالفة ولا كانت التليفونات بدون حرارة ولا كان كيلو اللحم بـ ١٨ جنيها ولا كان الحذاء بـ ٦٠ جنيها.

لكن أحلامه سرعان ما تبددت بعد تخرجه من الجامعة ، فلم يجد العمل الذى يحلم به ولم يجد الدور الوطنى الذى كان يتصوره لنفسه ولم يجد الشقة. ووسائل المواصلات السلكية واللاسلكية ظلت على ماهى عليه والأسعار ارتفعت أكثر من ذى قبل، أما علا فقد تركت له البلد تماما وسافرت مع والدها الذى ذهب للعمل بإحدى دول الخليج.

وبدأ يفقد كل شئ حتى وصل إلى درجة أحس أنه بدأ يفقد إحساسه بهويته فلم يعد يدرى من هو وإلى ماذا ينتمى، كان يصحو فى الصباح وهو لايدرى ماهى جنسيته: هل هو أمريكى أم باكستانى أم نرويجى أم إسرائيلى أم سنغالى؟ كان يسأل نفسه، ياترى ماهى لغتى التى أتحدث بها؟ وفى بعض الأحيان كان يسمع

صوت أمه وهى تصيح من المطبخ «قطيعة تقطع الميه وسنينها ! روحى يابنت الكومبانية قوليلهم الميه انقطعت تانى ، ده أيه وقف الحال ده؟» فيتعرف على صوتها بسرعة ويدرك أنه لابد مصرى وأن لغتة لابد هى العربية.

فى البداية كان يشعر بهذا التوهان على فترات متباعدة وفى الصباح فقط ما بين اليقظة والنوم، لكنه بعد ذلك بدأ ينتابه هذا الشعور أثناء ساعات النهار أيضا، فكان يمشى فى شوارع القاهرة ولايتعرف عليها ويحاول قراءة اللافتات المعلقة على المحال ولا يفهمها.

ذهب مرة ليقدم بإحدى الشركات بشارع جواد حسنى بوسط البلد فلم يجد الشارع ، ظل يلف ويدور فى حلقة مفرغة فيجد نفسه فى شارع الشواربى مرة وفى شارع قصر النيل مرة أخرى ، فى النهاية استجمع شجاعته وقرر أن يسأل أول من يصادفه وكانت فتاة لها نفس ملامح أخته التى توفيت أثناء العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ عندما كان والده يعمل ببورسعيد:

- من فضلك فين شارع جول جمال؟ قصدى شارع .. شارع جواد حسنى.. لا قصدى شارع..

وقبل أن يكمل حديثه فوجئ بصفعة قوية تنزل على وجهه من شاب يبدو أنه كان معها، فوضع رأسه بين كفيه وعاد إلى البيت دون أن يقدم للعمل فى الشركة.

وذهب مرة إلى كلية الهندسة ليسأل عن الدكتور يوسف مرزوق العميد الذى كان معجبا به، وكان يقول له دائما إنه سيكون له مستقبل باهر، كان ينوى أن يسأله إن كان باستطاعته أن يجد له عملا يليق به، لكنه لم يتعرف على الكلية التى أمضى فيها خمس سنوات كاملة، وجد كثيرا من الفتية يلبسون الجلاليب البيضاء وفيتات يلبسن خياما فضفاضة فى كل منها فتحتان صغيرتان لاتظهران إلا أعينهن.

الوحيد الذى تعرف عليه كان عم أحمد الفراش، كان كما هو لم يتغير بجلبابه القديم وطاقيته الصوف ، سأله عن العميد:

– ده استقال يابنى بقاله سنتين دلوقت.

– . . .

– فتح شركة استيراد وتصدير.

– . . .

– ماتروح له فى الشركة يمكن يشغلك عنده ده كان بيحبك قوى.

ولكن لسبب لم يدركه لم يجد فى نفسه أى رغبة فى الذهاب إلى العميد وكلما تذكر تلك الواقعة انتابه شعور بالإحباط لايعرف مصدره.

وأخذت حالته تتدهور إلى أن وصلت به الحال إلى أنه أحيانا لم يكن يعرف اسمه فإذا ناداه أحد كما حدث ذات مرة فى شارع طلعت حرب لم يكن يجيب. لكن «نبيه» زميله فى الدراسة ظل يجرى

وراءه إلى أن لحق به بالقرب من ميدان التحرير فأمسكه من كتفه وقال له:

- إيه حكايتك؟ أنت مابتردش على ليه؟

كان قد سمع صوته فعلا ولكنه لم يدرك أن الاسم الذى كان يصيح به صديقه هو اسمه.

في ذلك اليوم أدرك نبيه أن صديقه ليس على مايرام فأخذه وجلسا سويا فى أحد محلات «ومبى» حيث أكل نبيه «الهامبورجر» ثم طلب كوبين من عصير البرتقال ، لكن صديقه لم يستسغ طعم العصير وأحس نبيه بذلك فسأله:

- أنت مابتحبش عصير البرتقال؟

- . . .

- يا فلاح دوا إيه؟ ده عصير برتقال لكن صناعي، مستورد يعنى، ماهو دلوقت كل حاجة فى بلاد برة صناعية حتى عصير الفواكه.

ثم أضاف فى لهجة من يقدم إعلانا بالتليفزيون:

- إنه المسحوق العجيب! ضعي منه ٣ ملاعق فى كوب ماء يصبح لديك كوب من عصير البرتقال .. أو الليمون .. أو الأناناس.

- . . .

- ده ثمن الكباية الواحدة ٥٠ قرشا ، أنت بس اللى مش وش نعمة.

لم يعرف ماذا يقول ولم يذكر أنه قال شيئا على الإطلاق، كان يحس بأن «نبيه» يتحدث إلى شخص آخر غيره وأنه مجرد متفرج على الحديث دون أن يكون طرفا فيه، ولكن لابد أنه قال لنبيه إنه لايعمل لأنه سمع نبيه يقول:

- إزاى لسه ما شتغلتش لغاية دلوقت؟

- ...

- يا راجل بلاش خيابة بقى، البلد مليانة شغل بس إنت اللى مخك مقفل.

- ...

- ما أنا قدامك آهه باقعد فى أحسن حته وأطلب اللى نفسى فيه وكل حاجة ، لازم الواحد يماين شوية علشان المسألة تمشى.

- ...

- أنا قلت إنك كبرت وفهمت الحياة ، لكن الظاهر إنت لسه زى ما أنت ما تغيرتش من أيام المدرسة .. فاكر لما كنت ما ترضاش تغش وتقول لنا ده حرام؟ هاها! صحيح كان تقديرك أخر السنة دايما أحسن مننا لكن الحياة بقى غير المدرسة والحرام حقيقى هو أنك تفضل زى ما أنت كده، أنا بكلمك عشان بحبك ، أنت يا ما ذاكرت لى فى المدرسة برضك.

- عموما أنا مستعد أساعدك ، تعال اشتغل معانا، إحنا مجموعة شباب بنشتغل سوا، طبعا فيه مشاكل كتير لكن الواحد لازم يعافر، من ناحية السوق مليان حيتان بتبلع أى صيد صغير ومن ناحية تانية الأوضاع السياسية الجديدة دى مخلية الواحد مش عارف رأسه من رجليه لسه: لكن معلهش تعالى معانا وآهه اللى يجرى لنا يجرى لك بدل ما أنت قاعد كده.

- . . .

- ياعم سيبك من المثاليات بتاعة المدرسة دى بقى ، هو يعنى أنت اللى كويس واحنا ولاد كلب؟ أنت فاكر نفسك مين ؟ هه؟

أنت مين يعنى؟! هه؟ قوللى أنت مين أنت؟

ظل نبيه يكرر عليه السؤال وفى كل مرة يسأله عن هويته كان يزداد شعوره بالضياع ولا يدرى من هو ، صحيح من هو؟

فجأة نهض من مكانه تاركا نبيه وراءه دون كلمة وداع وأخذ يجرى فى الشوارع فى جميع الاتجاهات إلى أن وصل فى النهاية إلى كورنيش النيل بجاردن سيتى.

كانت الشرطة النهرية على بعد أمتار قليلة منه نظر إلى الضفة الأخرى من النيل وهو يلهث من شدة ماجرى فوجد المبنى القديم لمجلس قيادة الثورة فتعرف عليه ، كان كما كان يذكره ونظر إلى النيل فوجده أيضا كما هو، إذن لماذا تغير كل شئ؟

وبدأت تشتد عليه حالة التوهان التى تنتابه فاستجمع كل قوته وقرر أن يضع حدا لعذابه فقفز من فوق سور الكورنيش وألقى بنفسه فى النيل.

وماهى إلا ثوان معدودة حتى كانت فرقة من الشرطة النهرية تنتشله من الماء.

لم يغرق، وعندما قام أفراد فرقة الإنقاذ بالضغط على ظهره وهو ملقى على الأرض لكى يفرغ مافى جوفه من ماء لم تنزل منه نقطة ماء واحدة، كل ما حدث أنه فقد وعبه لدقائق قليلة عاد بعدها كما كان فوقف على قدميه وهم بمغادرة مقر الشرطة النهرية، لكنهم منعوه قائلين إنهم لابد أن يبلغوا البوليس بالواقعة فلم يفهم:

– . . .

– واقعة انتحارك.

– . . .

أيوه أنت مش فاكر؟

– . . .

– دلوقت حالا ، وهدومك لسه مبلولة أهيه.

وفى قسم البوليس لم يستطيعوا أن يأخذوا منه أى بيانات عن شخصيته أو عن سبب انتحاره أو حتى اعتراف منه بأنه أقدم بالفعل على الانتحار، لم يكن يحمل معه أي أوراق تدل على

شخصيته ولم يكن يعرف اسمه أو جنسيته أو ديانته، وعندما جاء الطبيب ليفحصه قال للضابط إن الشاب المنتحر مصاب بحالة فقدان للذاكرة وإنه يعانى من صدمة عنيفة غير معروف أسبابها.

وقد كانت لهجته المصرية الواضحة تسبب لضباط القسم حيرة كبيرة فهو بالتأكيد مصرى لكنه لايتعرف على أى شئ فى مصر، كانوا يعطونه الصحف فكان يقرأها بطلاقة دون أن يفهم ماتقوله أو عما تتحدث.

كانت حالة الطوارئ التي عمت جميع أقسام البوليس قد خفت حدتها بعد انقضاء بضعة أسابيع على حادث المنصة واغتيال الرئيس السادات فقرر الضباط أن يستبقوه معهم بالقسم إلى أن تعود إليه ذاكرته فيتمكنوا من استكمال المحضر الخاص بواقعة انتحاره، وتعاطفوا معه فكانوا يأتونه بسندوتشات الفول والطعمية وفى الليل كان ينام على أحد المكاتب بالقسم.

كان معظم وقته يقضيه فى قراءة الصحف اليومية كما يقرأ الأطفال القصص الخرافية، وفى بعض الأحيان كانوا يسمعونه يضحك بصوت عال لدقائق متوالية وهو يقرأ إحدى المقالات الافتتاحية بالصحف أو المجالات.

كان يحكى للضابط أن به رغبة لزيارة هذه البلد التى يقرأ عنها فى الصحف فكانوا يضربون كفا بكف ويقولون: «لا حول ولا قوة إلا بالله: احنا تعبانين منها وهو عايز يروح لها برجليه!».

إلى أن جاء يوم كان قد مضى عليه أكثر من أسبوعين فى قسم البوليس يعيش كالحيوان الأليف الذى تعود على مكان فلم يعد يغادره، كان نائما على المكتب حين دخل عليه أحد الضباط فى السابعة صباحا، فنهض بسرعة من فوق المكتب وسأل كعادته عن صحف اليوم وعلى الفور أعطاها الضابط له رغم أنه لم يكن قد قرأها بعد، فأخذ يلتهمها كما كان يفعل كل يوم.

فى هذا اليوم لم تضحكه الصحف، لا «المنشتات» ولا مقالات كبار الكتاب ورؤساء التحرير، لم يضحك، ظل صامتا مدة طويلة وهو يقرأ الصحف ويعيد قراءتها كما كان يفعل دائما وكأنه يبحث عن شئ ما.

فجأة بدأ ينتحب بصوت خافت فى البداية فلم يسمعه أحد ولكن سرعان ما بدأ الضباط يلاحظون أنه يبكى بكاء شديدا فذهبوا إليه مستفسرين عن حالته فلم يجب عليهم، بل ظلت عيناه تذرفان الدمع وهما مسمرتان على الصحيفة التى أطبق عليها بيديه.

ظل على حاله هذا بضع دقائق عجز خلالها الضباط عن التحدث إليه أو التهوين عنه فعاد كل منهم مرة أخرى إلى عمله تاركينه فى ركنه بالغرفة يقرأ الصحف ويبكى.

فجأة صرخ صرخة مدوية سمعها المارة فى الشارع وانتفض واقفا وأسرع إليه الضباط فقال لهم:

- خلاص أنا خفيت! أنا دلوقت عارف أنا مين!

ووجد الضباط ينظرون إليه غير مصدقين فقال:

ـ اسمي محمد وبلدى مصر ودينى الإسلام!

كان يصرخ في انفعال واضح، وحاول الضباط تهدئته لكن انفعاله ظل كما هو، فسأله أحدهم:

ـ هل تقدر تقول لنا فين أهلك علشان نبلغهم إنك هنا.

ـ أنا عارف فين أهلي وفين ناسى وأنا اللى حاروح لهم.

وقرر الضباط استدعاء الطبيب على الفور ليطلع على هذه الحالة الجديدة التى ألمت به.

بعد قليل كان قد استعاد هدوءه، وحضر الطبيب ففحصه جيدا ثم قال إنه لا يجد ما يبرر بقاءه فى القسم بعد اليوم فقد استعاد ذاكرته بالفعل.

وبعد أن غادر الطبيب القسم قام محمد بتوديع الضباط بعد أن استكمل معهم بقية بيانات المحضر فى هدوء ثم خرج إلى الشارع وسط شعور بالحيرة عم جميع الموجودين بالقسم.

وبعد أن غادر محمد القسم عاد الضابط الذى كان محمد ينام الليل على مكتبه فجلس إلى ذات المكتب وحاول جمع الصحف التى كان محمد قد تركها وراءه كومة منعكشة على الأرض ثم أخذ يقرأها وسط شعور قوى بالنعاس كثيرا ما كان ينتابه في وسط النهار.

وكانت عناوين الصحف فى ذلك اليوم تقول:

الرئيس يقول:

- لا تنازل عن مكاسب ثورة يوليو.

- علينا أن نتجه لإنتاج الاحتياجات الأساسية للقاعدة العريضة من الشعب وليس السلع الكمالية للقلة القادرة.

- الهـوة لا تزال عـمـيـقـة مـا بين الموقف المصـرى والموقف الإسرائيلى.. الهوة عميقة.. الهوة لا تزال.. الهوة..

وغالب الضابط النعاس وعاد يقرأ:

- مصر ستلتزم بسياسة عدم الانحياز.

- مصر للجميع وليست لأقلية متميزة أو صفوة مختارة.

- نقل جامعة الشعوب الإسلامية من مبنى جامعة الدول العربية حتى تعود الجامعة مرة أخرى إلى القاهرة.. تعود الجامعة العربية.. القاهر العربية.. تعود.. تعود.. تعود..

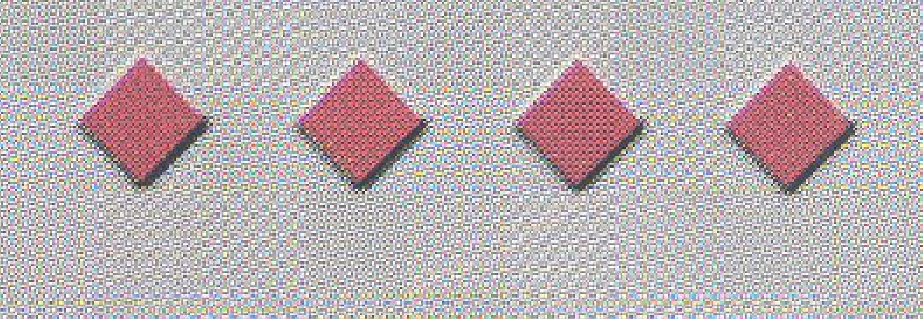
فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٩٤ ١١٠/٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6826 - 2





هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها: فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوچية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع



١٥٠
قرش